المحاضرتان 12+13

النشاط التأليفي

(العلوم النظرية)

أنتقل الآن لاستعراض أهم النتاجات العلمية في العلوم النظرية، وهي نتاجات تدل على اتساع النشاط التأليفي، وعلى الحركة العلمية النشطة في ذلك العصر، وتتضمن تلك النتاجات دراسات إبداعية جديدة لم تظهر قبل عصر المماليك، وهذا كله يدحض من وصف ذلك العصر بالتخلف أو أنه لا إبداع فيه وإنما تقليد، وأن لا دراسات جديدة فيه بل مختصرات وشروح.

وأبدأ بعلم يكاد لا يعرفه أحد، وهو علم لم نعره أي اهتمام، ولذلك نظن أنه علم غربي، وقد تقصدت أن أبدأ به لهذه الأسباب، ولأهميته الفائقة.

أولاً ــ علم التعمية واستخراج المعمى:

إن علم التعمية واستخراج المعمى (الشيفرة والتشفير) قد وصل إلى ذروته في عصر المماليك، ولذلك لا بد من معرفة تفاصيل ذلك بعد أن غُيب هذا الإبداع عن علماء ذلك العصر. فلقد صار لهذا العلم أهمية بالغة وصلت إلى القمة في عصرنا الحالي، وقد توافرت أسباب لرعايته وتطويره لدى الدول المتقدمة، ولذلك حظي بمكانة مرموقة بين العلوم، وتنوعت تطبيقاته وشملت مجالات متعددة منها المجالات الدبلوماسية والعسكرية والأمنية والتجارية والاقتصادية.

وإن تعجب فاعجب من أمر الذين يعملون في هذا العلم كيف غاب عنهم أن أصله عربي إسلامي، وأن العرب والمسلمين هم آباؤه وواضعو أسسه، ويا لشدة العجب من أمر الغربيين ومن لف لفهم من الذين سارعوا يعلنون للعالم أجمع بأن العالم (ألبرتي) هو مؤسس علم التعمية واستخراج المعمى، وفقط من خلال 25 صفحة تقدم بها عن هذا العلم، أما المخطوطات العربية الإسلامية التي تحمل اسم مبدعي علم التعمية الحقيقيين فإنهم لم يكلفوا أنفسهم بالبحث عنها والنظر فيها، بل حكموا بفقدانها تارة، وبنفي وجود أصحابها تارةً أخرى، وكأنما عُمّيت أبصارهم عنها. وتقع المسؤولية اليوم على علمائنا وباحثينا ومفكرينا ودارسينا في تصحيح هذه المغالطات عن هذا العلم والعلوم الأخرى، وهي كثيرة، والتي يدعي الغرب وعلماؤه أنهم السباقون إلى وضعها أو اكتشافها. وهذه تفاصيل هذا العلم العربي الإسلامي النشأة.

1ــ التعريف والمفهوم:

التعمية لغة: الخفاء والالتباس، وقد وردت في القرآن الكريم في قوله عز وجل: ﴿قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعُميّت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون﴾ [i]. واصطلاحاً: تحويل نص واضح إلى آخر غير مفهوم باستعمال طريقة محددة يستطيع من يعرفها أن يفهم النص. واستخراجها عكس ذلك يجري فيه تحويل النص المعمّى إلى نص واضح لمن لا يعرف مسبقاً طريقة التعمية المستعملة[ii].

وبمعنى آخر: هو علم دراسة الكتابة المعمّاة (السرية) حيث تستخدم طريقة سرية للكتابة من أجل تحويل نص صريح إلى نص معمى، وتدعى عملية تحويل النص الصريح إلى نص التعمية بعملية التعمية، بينما تدعى العملية العكسية الهادفة إلى تحويل النص المعمى إلى نص صريح بعملية الإظهار، ويتم التحكم بكلتا العمليتين (أي التعمية والإظهار) بواسطة مفاتيح التعمية[iii].

ولقد استعمل العرب والمسلمون هذا المصطلح كناية عن عملية تحويل نص واضح إلى نص غير مفهوم باستعمال طريقة محددة، ودرج في أيامنا استعمال كلمة «التشفير» بدلاً من كلمة التعمية، والتشفير كلمة وافدة من اللغات اللاتينية (CIPHER) وهو مصطلح جاء من كلمة عربية هي (الصفر) وهو ما أثبتته كثير من المصادر، حيث أدخل العرب مفهوم الصفر في الحساب، وطوروا استعماله على نحو واسع، وهذا ما لم يعرفه الغرب الأوربي في العصور الوسطى لاستعمالهم الأرقام اللاتينية التي لا وجود للصفر في نظامها الرقمي، وحينما دخلت الأرقام العربية للعالم الغربي بدا مفهوم الصفر غاية في الإبهام والتعمية، فكان أن شاع مثلٌ في اللغة اللاتينية يستعمله المتكلم عندما يريد أن يقول: إنه يتكلم عن أمور مفهومة لا عن شيء مبهم معمّى كالصفر، ومن هنا جاءت فكرة الكلمة (صفر) أو (التشفير) في جميع اللغات الأوربية للدلالة على التعمية[iv].

2 ــ التاريخ العربي الإسلامي لعلم التعمية واستخراج المعمى:

يعود الفضل في معرفة هذا العلم وابتكاره للعرب المسلمين وحدهم، وإلى عالم من علماء العصر المملوكي بالتحديد هو ابن الدريهم، فهو إذاً علم عربي إسلامي أصيل نشأةً وتطوراً، وهو ليس كغيره من العلوم التي ترجم العرب المسلمون بعض أصولها، ثم أغنوها وطوروها كالرياضيات والفيزياء والفلسفة، وإنما هو علم عربي إسلامي المولد في إبداعه ووضع أسسه وإرساء قواعده وتطويره إلى أن بلغ مرحلة ناضجة، وغدا ما وضعوه فيه مرجعاً اقتبس منه المشتغلون بالتعمية من بعد، والمسلمون هم أول من كتب طرائق التعمية التي ما انفك العالم يستخدم بعضها حتى يومنا هذا، وهم أول من وضع المناهج الأساسية في علم استخراج المعمى، ودوّنوا فيها مصنفات مستقلة

غاية في الأهمية منذ القرن الثالث الهجري = التاسع الميلادي، وجلّها باقٍ في خزائن المكتبات بالعالم ينتظر من ينفض عنها غبار القرون، فسبقوا بذلك الغربيين بنحو سبعة قرون، ومهّدوا لهم وتركوا بصمات واضحة في آثارهم تشهد بفضل العرب المسلمين وريادتهم[v].

فإليكم سلسلة المؤلفين والمفكرين المسلمين في علم التعمية واستخراج المعمى، وهي تبدأ بالقرن الثاني الهجري = الثامن الميلادي، القرن الذي أبدع فيه العرب المسلمون وضع قواعد هذا العلم وأسسه وتطوير طرائقه معتمدين على تطور العلوم عندهم كالرياضيات واللغة والترجمة، وكانت بداية هذه المحاولات على يد الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 170هـ=786م)، وجابر بن حيان (ت 200هـ=815م)، وثوبان بن إبراهيم ذي النون المصري (ت 245هـ=859م)، وسهل بن محمد بن عثمان السجستاني (ت 248هـ = 862م)، ويعقوب بن إسحق الكندي (ت260هـ = 873م) الذي ألّف رسالة منهجية في التعمية هي «رسالة في استخراج المعمّى»، وعُد من خلالها مؤسس علم التعمية على الإطلاق، وأحمد بن علي بن وحشية (ت بعد 291هـ= 914م)، ومحمد بن أحمد بن كيسان (القرن الثالث الهجري = التاسع الميلادي).

وندخل القرن الرابع الهجري = العاشر الميلادي مع داود بن الهيثم بن إسحق التنوخي (ت 316هـ = 928م)، ومحمد بن سعيد البصير الموصلي (القرن الرابع الهجري = العاشر الميلادي)، ومحمد بن أحمد بن محمد بن طباطبا (ت322هـ=934م)، وإسحق بن إبراهيم بن وهب الكاتب (حوالي القرن الرابع الهجري= العاشر الميلادي) [vi].

3 – علم التعمية واستخراج المعمى في العصرين الأيوبي والمملوكي:

بعد العلماء المتقدم ذكرهم تنقطع السلسلة في القرن الخامس الهجري = الحادي عشر الميلادي، حيث لم يعثر على عالم أو مؤلف في التعمية، ومع دخول القرن السادس الهجري = الثاني عشر الميلادي نجد السيوطي ينقل لنا في بغية الوعاة عن غيره عن عالم اسمه أحمد بن عبد العزيز الشنتمري (كان حياً عام 553هـ= 1158م) أنه كان «متقدماً في العروض وفك المعمى» [vii]. واستُخلص من إحدى رسائل التعمية لعلي بن عدلان الذي سنتحدث عنه بعد أسطر، وهي «المؤلف للملك الأشرف» ذكره عثمان بن عيسى التاج البلطي (ت 599هـ=1202م) ومعرفته بالتعمية[viii]. ومع نهاية القرن السادس الهجري = الثاني عشر الميلادي نتوقف مع أسعد بن مهذب بن مماتي (ت 606هـ=1209م) وكتابه في علم التعمية «خصائص المعرفة في المعميات» ذكره ياقوت في معجم الأدباء[ix]. وندخل القرن السابع الهجري = الثالث عشر الميلادي مع إبراهيم بن

محمد بن دُنينير (ت 627هـ=1229م) ورسالته «مقاصد الفصول المترجمة عن حل الترجمة».

ونأتي بعد ذلك إلى عصر المماليك وإلى العالم علي بن عدلان (ت666هـ=1268م)، وقد ألّف: «المؤلف للملك الأشرف في حل التراجم» و«المُعلم» وأحال عليه من رسالته الماضية، وسنتحدث عنه لاحقاً بشيء من التفصيل. وتوصلنا السلسلة إلى أحد أشهر علماء التعمية في التاريخ العربي الإسلامي وهو علي بن محمد بن الدريهم (ت 762هـ- 1359م) ومؤلفاته في هذا الفن كثيرة سنتحدث عنها كذلك لاحقاً. ونجد علي بن محمد بن آيدمر الجلدكي (ت742هـ=1341م) يتحدث في كتابه «كنز الاختصاص ودرة الغواص في معرفة أسرار علم الخواص» عن «كشف المرغم وحل المبهم مما أُدغم بكل لسان وما أُبهم في كل زمان وما ستره الأولون بالأقلام وسائر الأعوان». وضمّن أحمد بن علي القلقشندي (ت 821هـ=1418م) موسوعته «صبح الأعشى في صناعة الإنشا» فصلاً كاملاً للحديث عن تعمية الكتب، وهو الفصل الثامن: «في إخفاء ما في الكتب من السر»، وجل ما فيه منقول عن ابن الدريهم[x].

4 ــ ابن عدلان وابن الدريهم:

وهما اللذان تخمّر على أيديهما هذا العلم في عصر المماليك، ولذلك عدهم العلماء المؤسسين الحقيقيين له، وخاصة ابن الدريهم، لذلك أردت التفصيل بالحديث عنهما.

أــ ابن عدلان:

علي بن عدلان بن حماد بن علي الموصلي النحوي المترجم، ولد سنة 583هـ= 1187م، ثم تلقى العلم في بغداد على عدد من العلماء، وأقرأ وعلّم ما تعلم خاصة علوم اللغة العربية التي سمعها منه كثيرون، حيث تصدر للتعليم في جامع الصالح بالقاهرة، توفي سنة 666هـ=1268م في القاهرة، فيكون بهذا قد عاصر الدولتين الأيوبية والمملوكية.

وصفه ابن شاكر الكتبي (ت 764هـ = 1362م) بأنه كان: «علّامة في الأدب من أذكياء بني آدم، انفرد بحل المترجم والألغاز». ومصنفاته هي: «الانتخاب لكشف الأبيات المشكلة الإعراب»، و«عقلة المجتاز في حل الألغاز»، و «المعلم»، و«المؤلف للملك الأشرف»[xi].

والذي يعنينا من مؤلفات ابن عدلان رسالته: «المؤلف للملك الأشرف»، وهي التي قسّمها إلى فاتحة وعشرين قاعدة وخاتمة، حوت الفاتحة ثلاثة مواضيع هي: عدة المترجم، وذكر أمثلة في الترجمة بالتبديل البسيط، ودراسة في اقتران الحروف لبناء الكلمة العربية.

واحتوت القواعد على تسعة مواضيع هي: الطريقة التحليلية لحل المترجم (القواعد: 1،2، 3)، استخراج الفصل (القاعدة: 4)، استخراج (الــ) وما حولها من حروف (القواعد:5، 6،7)،

الكلمة المحتملة (القاعدة: 8)، استخدام حروف أوائل الكلمات وأواخرها (القاعدتان: 9،10)، استعمال المضاعف من الحروف أو من ثنائيات الحروف (القواعد: 11،13،14،15)، حل المدمج (القاعدة: 12)، حل المعمى من الشعر (القاعدتان: 16،17)، خلاصة وفوائد (القواعد: 8،19،20). وحوت الخاتمة موضوعاً واحداً هو: الدُربة (التدريب) والتمرن من خلال مثال عملي.

وبالتالي فإن هذه الرسالة تمثل دليلاً عملياً للباحث في علم التعمية واستخراجه، ودلت على أصالة ابن عدلان فيها النقاط التالية: ــ عرض ابن عدلان هذه الرسالة على شكل دليل عملي، ــ تقديمه فكرة (الضوابط) أو (المفتاح)، بأبيات من الشعر، ــ أدخل لأول مرة بشكل صريح مفهوم المفتاح في طرائق التعمية، ــ وضع قواعد وخطوات تحليل المعمى بشكل دقيق بحيث نستطيع أن نعدها خوارزمية متكاملة لتحليل المعمى، ــ معالجته المستفيضة للفاصل (الفراغ الفاصل بين كلمتين) في حالاته الثلاث (متحداً، مختلفاً، مدمجاً: أي من فاصل)، ــ ويكون ابن عدلان قد سبق بذلك العالم PORTA (971هـ = 1563م) بثلاثة قرون، حيث أن الغربيين يعدون بورتا أول من كتب عن حل المُدمج، ــ تقسيمه الحروف من حيث تواترها إلى كثيرة ومتوسطة وقليلة، ــ استعماله أطوال الكلمات وأوائلها وأواخرها، والتأكيد على استعمال الثنائية منها فالثلاثية فالرباعية، وما يخص كلاً منها، ــ العناية بطريقة الكلمة المحتملة، ــ الاستفادة من الحروف المضاعفة والمثلثة والثنائيات المضاعفة وتواترها، ــ جاء بمفهوم لتقسيم الحروف من حيث تواترها، ــ حدد بشكل دقيق المواصفات الشخصية لمن سيتعامل مع التعمية والتشفير[xii].

ب ــ ابن الدريهم:

علي بن محمد بن عبد العزيز بن فتوح بن إبراهيم بن أبي بكر بن القاسم الثعلبي الشافعي الموصلي، وعُرف بابن الدريهم وهو لقب جده الأعلى، ولد في موصل العراق سنة 712هـ = 1312م، ونشأ على تعلم العلوم، فقرأ القرآن الكريم بالروايات، وتعلم قواعد اللغة العربية فحفظ مثلاً ألفية ابن مالك، ودرس كتابه التسهيل، وأخذ ذلك على عدد من العلماء أشهرهم أبو حيان الأندلسي الغرناطي، وتنوعت علومه ما بين فقه وتفسير وحديث وأصول وقراءات.

توفي والده وهو صغير فنشأ يتيماً، ولم تصل إليه ثروة أبيه التي تركها له، فاجتهد في طلب العلم، إلى أن كبر فتسلم مقداراً يسيراً من تركة أبيه وسافر بها متاجراً إلى الشام ثم إلى مصر، وحصل له من ذلك ثروة عظيمة ما لبثت أن ذهبت. تنقل ابن الدريهم كثيراً ما بين دمشق وحلب ومصر، ودرّس في دمشق في جامعها الأموي، ثم رحل إلى مصر عام 760هـ = 1359م، وفي

هذه الفترة أرسله الناصر حسن بن محمد بن قلاوون رسولاً إلى الحبشة (وهو مكره على ما ذكر ابن حجر) فوصل قوص من صعيد مصر ومات بها في صفر سنة 762هـ =1361م.

والمهم في ترجمة ابن الدريهم إقرار العلماء والمؤرخين المعاصرين له وغير المعاصرين بريادته وبراعته في علم التعمية واستخراج المعمى والتلاعب بالحروف، دلّت على ذلك أقوالهم العديدة، والتي أختار منها أقوال معاصره خليل بن أيبك الصفدي (ت 764هـ= 1363م) حيث يقول: «كان أعجوبة من أعاجيب الزمان في ذكائه، وغريبة من غرائب الدهر تشرق سماء الفضل بذكائه، دقيق الغوص على المعاني شديد التنقيب ... خصوصاً في الرياضي وما يتشعب منه، والكلام على أسرار الحروف وما يلائم طبعه أو ينافيه»، ويقول: «وأما الحساب والأوفاق وخواص الحروف وحل المترجم والألغاز فأمر بارع»، و«ولم أرَ أحدّ ذهناً منه في الكلام على الحروف وخواصها وما يتعلق بالأوفاق وأوضاعها»[xiii].

وذكر ابن حجر العسقلاني عنه: «كان ماهراً في الأحاجي والألغاز وحل المترجم والأوفاق والكلام على الحروف وخواصها، حتى كان يقال له ضمير عن شيء يكتبه السائل بخطه فيكتبه هو حروفاً منقطعة، ثم يكسر تلك الحروف فيخرج الجواب عن ذلك الضمير شعراً ليس منه حرف واحد خارجاً عن حروف الضمير»[xiv].

وترجم ابن الدريهم هذه المعارف عملياً في مصنفاته، فعلى الرغم من أنه لم يعش طويلاً ـــ حيث لم تتجاوز حياته الخمسين عاماً ـــ لكنه خلّف لنا ثروة طائلة من المؤلفات، خاصة تلك المختصة بعلم التعمية والتشفير، وهذه المؤلفات هي: إيضاح المبهم في حل المترجم. مختصر المبهم في حل المترجم. غاية الإعجاز في الأحاجي والألغاز. كتر الدرر في حروف أوائل السور. قصيدة في حل رموز الأقلام المكتوبة على البرابي. إقناع الحذاق في أنواع الأوفاق. إيقاظ المصيب في الشطرنج والمناصيب. بسط الفوائد في شرح حساب القواعد. بوادر الحلوم في نوادر العلوم. تصاريف الدهر في تعاريف الزجر. تنائي المناظر في المرائي والمناظر. سبر الصرف في سر الحرف. سلم الحراسة في علم الفراسة. شرح الأسعردية في الحساب. غاية المغنم في الاسم الأعظم. المناسبات العددية في الأسماء المحمدية. مناسبة الحساب في أسماء الأنبياء المذكورين في الكتاب. نظم لقواعد فن المترجم وضوابطه[xv].

والأهم من بين هذه الكتب جميعها مصنفه «مفتاح الكنوز في إيضاح الرموز» وهو الكتاب الذي أكثر القلقشندي من النقل عنه في موسوعته (صبح الأعشى)، وأورد ذلك تحت عنوان «إخفاء ما في الكتب من السر» مشيراً به إلى كلام ابن الدريهم[xvi]. ويعد هذا الكتاب من أوسع ما عثر

عليه من مخطوطات في علم التعمية وأكثرها تفصيلاً، ويدل على ممارسة ابن الدريهم ومعاناته لهذا العلم عملياً، خاصة وأنه عمل في خدمة بعض الملوك أمثال الملك الناصر حسن بن محمد بن قلاوون كما مر سابقاً.

اشتمل كتاب ابن الدريهم (مفتاح الكنوز في إيضاح الرموز) على خمس قضايا جاءت بعد المقدمة تباعاً، وهي: القضية الأولى؛ ما لابد منه لمن يعاني علم حل الترجمة. القضية الثانية؛ ضروب التعمية. القضية الثالثة؛ مقدمة صرفية. القضية الرابعة؛ منهجية حل الترجمة. القضية الخامسة؛ مثالان عمليان في حل الترجمة.

وأكثر ما تبدّت أصالة ابن الدريهم فيه كانت في شرحه وتحليلاته لإمكانيات كل طريقة من طرق التعمية وضوابطها، فالجديد الذي أتى به هو في التعمية أكثر منه في استخراج المعمى، وفي باب التحليل أكثر منه في باب الطرق نفسها. وأثبتت الدراسات أيضاً أن هذه الرسالة هي أول رسالة شاملة في علم التعمية، ذُكرت فيها طرائق التعمية وأنواعها المختلفة دون تداخل، وبهذا فقد سبق ابن الدريهم علماء عصره والعصور التي سبقته، وإن كان الكندي هو أبا علم التعمية.

وجاء الكثير من الباحثين الذين أكملوا طريقه، إلا أن ابن الدريهم تميز منهم بتقديمه رسالة في التعمية متكاملة، حيث توسع في شرح ما لم يتعرض له الكندي، وألقى الضوء على الكثير من النقاط الغامضة[xvii]، وبالتالي يمكن عد كتابه مرجع شمولي يمكن العمل به في كل العصور.

ومما يجب ذكره أن عدداً من علماء الغرب ومنهم دافيد كهن، قد عدّ كتاب ابن الدريهم في حكم المفقود، ومنهم من شكك أصلاً بوجود شخصية تدعى ابن الدريهم، فهي عندهم شخصية وهمية أو خيالية، وأشار هؤلاء أن العرب لم تكن لهم أية مشاركة في هذا العلم[xviii]. ولكن بعد تكشّف الحقيقة؛ ما كان من دافيد كهن إلا أن نفى الأسبقية في علم التعمية والتي تعرفها أوربا ويعرفها العالم على أنها للعالم الإيطالي ألبرتي (871هـ=1466م) ونسبها إلى ابن الدريهم، يقول: «إن ابن الدريهم العربي هو أبو التعمية في العالم، وليس العالم الإيطالي ألبرتي»[xix].

ثانياً ــ العلوم الدينية:

والتأليف فيها شامل ومتشعب كثيراً، لذلك سأقتصر على أبرز العلماء والمؤلفات[xx].

1ــ الفقه وأصوله:

في الفقه الشافعي: عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن حسن (ت660هـ = 1261م)[xxi]، له «الفتاوى الموصلية في الفقه الشافعي»، وهي أسئلة وردت إليه سنة 654هـ = 1256م من خطيب الموصل الشيخ شمس الدين عبد الرحيم الطوسي، فأجاب عليها في هذا

الكتاب[xxii]. وقد برع في الفقه حتى إنه أبدع باباً جديداً فيه هو (باب المقاصد) من خلال كتابه «القواعد الكبرى» المعروف بـــ «قواعد الأحكام في إصلاح الأنام»، حيث رجّع الفقه كله إلى اعتبار المصالح ودرء المفاسد[xxiii]، وقال في مقدمته: «والشريعة كلها نصائح، إما بدرء مفاسد أو بجلب مصالح»، وهكذا فقد أبان ما في بعض الأحكام من مفاسد حثاً على اجتنابها، وما في بعضها من مصالح حثاً على إتيانها[xxiv].

موسى بن علي بن وهب بن دقيق العيد الفقيه المولود بقوص من صعيد مصر عام 641هـــ= 1243م، وتصدى فيها للإفتاء ونشر العلم وتوفي فيها عام 685هـــ = 1286م، ترك كتاباً في الفقه الشافعي سماه «المغني»[xxv].

الزركشي محمد بن بهادر بن عبد الله المصري الشافعي (ت 794هـــ= 1391م)، من تصانيفه في الفقه «شرح جمع الجوامع» و«شرح المنهاج» و«البحر المحيط»، وكتابه «خبايا الزوايا» حيث رأى أن الكثير من المسائل الفقهية ذُكرت في غير أبوابها، فشمّر ساعد الجد وتتبع المسائل وأرجعها إلى أبوابها، ولم يُسمع أن أحداً أقبل على مثل هذا العمل قبله[xxvi].

قاضي القضاة نور الدين أبو الثناء محمود بن أحمد، شرف الدين الأنصاري، الشافعي (ت 834 هـــ =1430م)، من أهم مصنفاته في الفقه: «تكملة شرح منهاج النووي» لتاج الدين السبكي في ثلاثة عشر مجلداً، و«كتاب التحفة في المبهمات»، و«كتاب اليواقيت المضيئة في المواقيت الشرعية»[xxvii].

وفي الفقه الحنفي: عثمان بن علي بن يحيى الزيلعي الحنفي (ت 743هـــ= 1342م)، صنف «شرح الجامع الكبير»، و«تبيين الحقائق» وشرح فيه كتاب «كتر الدقائق» في فروع الحنفية للشيخ الإمام عبد الله بن أحمد بن محمود المعروف بحافظ الدين النسفي (ت 710هـــ= 1310م) [xxviii].

إبراهيم بن علي بن أحمد بن عبد الصمد الحنفي (ت 758هـــ = 1356م)، وقال عنه معاصروه: شيخ الحنفية بالشام، له أرجوزة في «معرفة ما بين الأشاعرة والحنفية من الخلاف»، وله «أنفع الوسائل إلى تحرير المسائل»، و«الفوائد الفقهية البدرية» و هي منظومة ألفية[xxix].

محمد بن محمود بن أحمد البابرتي الحنفي (ت 786هـــ= 1384م)، صنّف «شرح الهداية» و«شرح مختصر ابن الحاجب»، وهو كتاب في أصول الفقه موسوم بـــ «منتهى الوصول والأمل في علمي الأصول والجدل» لمؤلفه جمال الدين بن عمر ابن الحاجب المالكي (ت 646هـــ= 1248م). وأثبت بروكلمان للبابرتي المؤلفات التالية: ـــ ثلاث عشرة رسالة في الفقه والفرائض

والتفسير، ـــ رسالة في اقتداء الحنفية بالشافعية، ـــ شرح وصية الإمام الأعظم، ـــ رسالة في تجريح تقليد الإمام الأعظم على غيره من الأئمة[xxx].

كمال الدين محمد بن عبد الواحد السيواسي، المعروف بابن الهمام الحنفي (ت861هـ = 1457م)، وله «التحرير في أصول الفقه»، و«شرح الهداية»، و«زاد الفقير»[xxxi].

وفي الفقه المالكي: عبد الله بن عبد الرحمن بن عمر الشارمساحي (ت669هـ= 1270م)، له من المؤلفات «الفوائد في الفقه»، و«شرح آداب النظر»، و«نظم الدرر» الذي اختصر فيه المدونة الكبرى في الفقه المالكي للإمام مالك بن أنس[xxxii]. وعيسى بن مسعود بن منصور بن يحيى الزواوي (ت743هـ= 1343م) الذي انتهت إليه رئاسة المالكية في الديار المصرية والشامية، ومن مؤلفاته: «شرح المدونة»، و«شرح مختصر ابن الحاجب»، و«الرد على ابن تيمية في مسألة الطلاق»، و«إكمال الإكمال» وهو شرح لصحيح مسلم في اثني عشر مجلداً، و«شرح جامع الأمهات» وهو كتاب في الفقه المالكي لجمال الدين عمر بن الحاجب المالكي[xxxiii].

وأحمد بن محمد بن محمد بن رشيد الإسكندراني الزبيري (ت801هـ= 1398م) وقد تولى قضاء المالكية في القاهرة، وصنف «شرح مختصر ابن الحاجب»[xxxiv].

وفي الفقه الحنبلي: تقي الدين أحمد بن تيمية الحراني (ت 728هـ = 1327م)، وكان إنتاجه غزيراً، فمن ذلك: «الفتاوى الكبرى» وهي موسوعة إسلامية وذخيرة علمية وثروة فقهية كبيرة، تقع في نحو خمس مجلدات، و«الفتاوى الحديثية»، و«فتاوى النساء»، و«تعارض العقل والنقل»، و«منهاج الاستقامة»، و«المائعات وملاقاها النجاسات»، و«نواقض الوضوء»، و«الجمع بين الصلاتين في السفر»، و«فيما يختلف حكمه بالسفر والحضر»[xxxv].

محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الحنبلي الشهير بابن قيم الجوزية (ت751هـ= 1350م)، من مصنفاته الفقهية «رفع اليدين في الصلاة»، و«حكم تارك الصلاة»، و«حكم إغمام هلال رمضان»، و«التحرير فيما يحل ويحرم من لباس الحرير»، و«بيان الدليل على استغناء المسابقة عن التحليل»، و«كشف الغطاء عن حكم سماع الغناء». وجُمعت فتاوى النساء لابن قيم في كتاب «فتاوى رسول الله ﷺ للنساء»[xxxvi].

محمد بن مفلح بن محمد بن مفرج المقدسي الصالحي (ت763هـ= 1362م)، وصنّف كتاب «الفروع» في فقه الإمام أحمد بن حنبل، وأقر له العلماء بأهميته الكبيرة، فقد قال عنه أحد أئمة الحنابلة: «من أعظم ما صُنف في فقه الإمام الرباني ... وأتمها تحريراً وأحسنها تحبيراً، وأكملها

تحقيقاً، وأقربها إلى الصواب طريقاً، وأعدلها تصحيحاً، وأقومها ترجيحاً، وأغزرها علماً»، وله أيضاً «المصالح المرعية في فقه الحنبلية»[xxxvii].

2ــ علوم القرآن الكريم (التفسير والقراءات):

يُقصد بعلوم القرآن كل علم يخدم القرآن الجليل أو يستند إليه، ويضمّ ذلك علم التفسير، وعلم القراءات، وعلم الرسم العثماني، وعلم إعجاز القرآن، وعلم أسباب النزول، وعلم الناسخ والمنسوخ، وعلم إعراب القرآن، وعلم غريب القرآن، وعلوم الدين، وعلوم اللغة، إلى غير ذلك، ومنهم من توسع في ذلك فجعل منها علم الهيئة والهندسة والطب، ومنهم من أوصلها إلى مئات العلوم[xxxviii].

ومن أشهر أعلام التفسير في عصر المماليك: العز بن عبد السلام الذي قدّم كتابين مهمين أولهما «الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز» الذي أفرده للحديث عن معرفة الحقيقة والمجاز في القرآن الكريم، فجاء من أفضل المؤلفات في هذا الباب. وثانيهما «الإمام في بيان أدلة الأحكام» وبيّن فيه أدلة الأحكام المتعلقة بالملائكة والمرسلين وسائر العالمين في القرآن الكريم[xxxix].

القرطبي محمد بن أحمد بن أبي بكر (ت 671هـ= 1272م) نزيل القاهرة، الذي خلّف تفسيره المشهور «الجامع لأحكام القرآن»، وهو من أجلّ التفاسير وأعظمها نفعاً، جمع فيه «مذاهب السلف كلها، وما أكثر فوائده»، أسقط منه القصص والتواريخ بالجملة ليثبت عوضاً عنها الأحكام الشرعية المستنبطة من القرآن الكريم مع أدلتها، ووجه الاستدلال على منهج الفقهاء، وذكر فيه علوم القراءات، والإعراب، والناسخ والمنسوخ، وغريب القرآن، وردّ فيه على أصحاب الفرق الإسلامية، فجاء من أجل التفاسير[xl].

ابن المنير أحمد بن محمد بن منصور (ت 683هـ= 1284م)، من مصنفاته «تفسير حديث الإسراء» و«المقتفى في آيات الإسراء»، أما أشهر مصنفاته فهو «البحر الكبير»، الموصوف بالتفسير النفيس[xli]، وصنّف ابن المنير كذلك «التفسير العجيب في تفسير الغريب»[xlii].

أثير الدين محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان، أبو حيان الغرناطي (ت 745هـ= 1344م)، إمام المفسرين في وقته، وصاحب التصانيف الشهيرة التي سارت شرقاً وغرباً، ونالت من أهل عصره ومن أتى بعدهم كل تقدير وإجلال، وحظيت بعناية أهل العلم حتى أصبحت متداولة بشتى الأقطار، إذ أنتج تفسيراً عظيماً في مجلدات كثيرة سمّاه «البحر المحيط»، وتفسيراً آخر هو مختصر للبحر المحيط سماه «النهر الماد من البحر المحيط»، وكتاباً في علوم القرآن سماه «تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب»[xliii].

ابن قيم الجوزية، الذي جُمع ما يمكن جمعه من جهوده في كتاب «التفسير القيم لابن القيم»[xliv]، وكتاب «الفوائد» الذي رصد فيه معاني كثيرة من القرآن والسنة، وقال عنه العلماء: «يمكنك أن تفتح أي صفحة من صفحاته فتجد ما يستحق رحلة لطلبه»، ومن أفضل ما فعله ابن قيم في هذا الكتاب ربطه القرآن والسنة بالواقع. ومن التفاسير التي وُجدت له «تفسير سورة الكافرين والمعوذتين»، و«تفسير المعوذتين»، وأنتج ابن قيم في علوم القرآن الأخرى كتابين، الأول في الأقسام التي هي بمعنى الحلف واليمين، وسمّاه «التبيان في أقسام القرآن» ففصّل في ذلك بأسلوبه العذب، وانفرد في تناول هذا الموضوع بين العلماء حتى ذلك الوقت، وهذا أمر لم يسبقه إليه أحد ممن قبله، وهذا في حد ذاته يعطي الكتاب أهمية فريدة. وفي الكتاب الثاني تناول ابن قيم جانباً مهماً في حياة العرب والمسلمين وعوام الناس، متخصصاً فيه بالأمثال المضروبة في القرآن الكريم، مع بيانها ودلالتها وتفسيرها وتحليلها وبيان حكمتها وما إلى ذلك، وسمّاه «الأمثال»[xlv].

أحمد بن يوسف بن محمد بن عبد الدائم والمعروف بالسمين الحلبي (ت756هـ= 1355م)، من أهم مصنفاته تفسير للقرآن في عشرين مجلداً، و«أحكام القرآن»، و«الدر المصون» في أربعة أجزاء؛ واسمه الكامل «الدر المصون في علوم الكتاب المكنون» اختص فيه بخمسة علوم، وهي على ما ذكر «علم الإعراب، وعلم التصريف، وعلم اللغة، وعلم المعاني، وعلم البيان»[xlvi].

محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (ت794هـ = 1391م)، الذي قدّم تفسيراً للقرآن العظيم وصل فيه إلى سورة مريم، وقدّم موسوعة في علوم القرآن أطلق عليها اسم «البرهان في علوم القرآن»[xlvii].

عبد الرحمن بن أبي بكر الخضيري السيوطي (ت911هـ = 1506م)، أفضل من عمل في ميدان التفسير، وله فيه مصنفات كثيرة منها «الإتقان في علوم القرآن»، و «الدر المنثور في التفسير المأثور»، و«ترجمان القرآن في التفسير»، و«قطف الأزهار في كشف الأسرار»، و«التحبير في علوم التفسير»[xlviii].

أما القراءات: فتُعرّف بأنها علم بكيفية أداء كلمات القرآن واختلافها بعزو الناقلة، وتُعرّف كذلك بأنها اختلاف ألفاظ الوحي المنزل على النبي ﷺ في كتابة الحروف، أو في كيفيتها من تخفيف وتثقيل وغيرهما، وهكذا فهي مذهب يذهب إليه إمام من أئمة القرّاء مخالفاً به غيره في النطق بالقرآن الكريم، مع اتفاق الروايات والطرق عنه، سواء أكانت هذه المخالفة في نطق الحروف أم في نطق هيئاتها[xlix].

إنّ الميزة الواضحة لهذا العلم في عصر المماليك هي ارتكاز جل الطلبة والعلماء على القصيدة الشاطبية في علم القراءات، معتمدين عليها في تعلمهم وتعليمهم. والمنظومة الشاطبية هي التي نظمها القاسم بن فيرة بن خلف بن أحمد الشاطبي (ت590هـ= 1193م) نسبة لمولده بشاطبة من بلاد الأندلس عام 538هـ= 1143م، الذي ارتحل في طلب العلم ولاسيما علوم القراءات التي أتقنها حتى صار رأساً فيها. وسمّى قصيدته الشاطبية بـ «حرز الأماني ووجه التهاني»، وقد لاقت من القبول والشهرة مالا نعلمه لغيرها في هذا الفن حتى صارت في جميع بلاد الإسلام[l].

فممن اشتهر بعنايته بهذا الفن علي بن شجاع بن سالم بن علي بن موسى الهاشمي الضرير المصري (ت661هـ= 1262م)، وقد صاحب الشاطبي وتزوج ابنته، وقرأ عليه القراءات السبع، وعلّم وأقرأ الكثير من الطلبة، وانتهت إليه رئاسة الإقراء في زمانه، فازدحم عليه القرّاء[li].

وعلي بن عثمان بن محمد بن أحمد المعروف بابن القاصح (ت801هـ= 1398م) الذي تقدم في القراءات، وقرأ عليه خلق، ومن تصانيفه «مصطلح الإشارات في القراءات الست الزائدة عن السبع»، و«القصيدة العلوية في القراءات»، وشرح الشاطبية بشرح سماه «سراج القارئ المبتدئ وتذكار القارئ المنتهي في شرح حرز الأماني العلوية في القراءات السبع المروية»[lii].

أحمد بن عمر بن محمد ابن أبي الرضا الحموي (ت791 هـ = 1388م)، برع بالتفسر والقراءات. ومن مؤلفاته: «كتاب الناسخ والمنسوخ»، و«كتابٌ في فنون القراءات»، و«منظومة في غرائب القرآن»، و«كتاب القواعد والإرشاد في أصول القراءات»[liii].

محمد بن محمد بن يوسف الجزري (ت 833هـ = 1429م) مقريء الممالك الإسلامية، ومن كتبه «النشر في القراءات العشر»، و«التمهيد في علم التجويد» [liv].

وجلال الدين عبد الرحمن السيوطي، وله «شرح الشاطبية»، و«الألفية في القراءات العشر» [lv].

3ـ الحديث الشريف وعلومه:

ومن أبرز العلماء فيه: النووي يحيى بن شرف (ت676هـ= 1277م)، العالم المشهور، وهو الذي ترك كتاباً هو من أشهر الكتب، وهو «رياض الصالحين»، وله كذلك «شرح صحيح مسلم»[lvi].

محمد بن علي بن وهب بن دقيق العيد القشيري (ت702هـ= 1302م) مدرِّس الحديث في دار الحديث الكاملية، الذي خدم هذا العلم بتصانيف مشهورة، منها «الإلمام» و«الاقتراح».

والاسم الكامل لكتابه الأول هو «الإلمام بأحاديث الأحكام»، تناول فيه أحاديث الأحكام المتعلقة بالطهارة والعبادات وهكذا، والكتاب الثاني «الاقتراح في بيان الاصطلاح» وتحدث فيه عن علم مصطلح الحديث. وله كتاب ثالث سماه «إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام» في عدة مجلدات، وهو شرح جميل ومفيد لكتاب «عمدة الأحكام» لواضعه الحافظ عبد الغني بن عبد الواحد المقدسي (ت600هـ= 1203م)، أراد فيه أن يقرِّب السنن للناشئين، فجمع مختصراً في أحاديث الأحكام اقتصر فيه على أحاديث من أعلى أنواع الصحيح مما اتفق على إخراجه الشيخان البخاري ومسلم في صحيحيهما[lvii].

يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف المزي (ت 742هـ = 1341م)، شبّ بالمزة قرب دمشق، سافر في طلب الحديث إلى أن عاد إلى دمشق، وصار شيخ مدرسي الحديث بالمدرسة الأشرفية. له «تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف»، وهو في أسماء رواة الكتب الستة مع ذكر مروياتهم، وله «المنتقى من الأحاديث»[lviii].

الحافظ الذهبي محمد بن أحمد (ت 748هـ= 1348م) المحدث والمؤرخ، و«شيخ الجرح والتعديل ورجل الرجال في كل سبيل» ـــ كما وصفه السبكي ـــ، صنّف تصانيف كثيرة مشهورة ونافعة. وتُعد مصنفاته من أهم وأثمن ما أُلف في علوم الحديث، ولاسيما علم رجال الحديث، حيث عُدّ بسببها سيد النقاد في عصره، فكتابه «ميزان الاعتدال في نقد الرجال» من أهم الكتب في باب الجرح والتعديل، وقد فاق غيره ممن ألف فيه من حيث التوسع، وكتابه الآخر «المغني في الضعفاء» من أجلّ ما صُنِّف في هذا الفن، استوعب فيه ما جمعته أمهات كتب الضعفاء قبله، وزاد عليها زيادات وفوائد جليلة لا نجدها في غيره من المطولات حتى عند من ألّف بعده[lix].

خليل بن كيكلدي بن عبد الله العلائي الدمشقي (ت 761هـ = 1339م)، درّس الحديث في دمشق وغيرها، ودرّس في مدارسها ومنها الناصرية والأسدية، له «رفع الإشكال عن حديث صيام ستة من شوال»، و«التنبيهات المحملة على المواضع المشكلة»، وتناول فيها المواضيع الغامضة في كتب البخاري ومسلم ومالك، و«النقد الصحيح لما اعترض عليه من أحاديث المصابيح»[lx].

الزركشي محمد بن بهادر الذي اشتغل بعلم الحديث وخدمه بكتاب فريد هو «اللآلئ المنثورة في الأحاديث المشهورة»، ويُسمى أيضاً «التذكرة في الأحاديث المشتهرة»، وصدّره بمقدمة ذكر فيها أن تبيين الأحاديث المشتهرة على ألسنة العوام وكثير من الفقهاء من الأمور المهمة جداً، ذلك لأن كثيراً منها مكذوب مختلَقٌ لا أصل له، وبعد النظر في تاريخ التأليف في هذا الفن يتبين لنا أن كتاب الزركشي المذكور يعد الكتاب الأول الذي وصل إلينا في هذا الفن، وما سبقه من بحوث

ليست إلاّ نتفاً وإشارات عابرة في كتب لم يقصرها مؤلفوها على هذا الفن، وقد بلغت خطوة الزركشي في كتابه هذا درجة متقدمة في الجودة عند الإمام السخاوي (ت902هـ= 1496م) في كتابه «المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة»[lxi].

نور الدين أبو الثناء محمود بن أحمد، قاضي القضاة شرف الدين الأنصاري الحموي (ت 834 هـ =1430م)، ومن تصانيفه: «كتاب تهذيب المطالع في اللغة الواردة في الصحيحين والموطّأ»، و«كتاب تحفة ذوي الأرب في مشكل الأسماء والنسب»، وتناول فيه أسماء رواة صحيحي البخاري ومسلم والموطّأ [lxii].

ابن حجر العسقلاني شهاب الدين أحمد بن علي الكناني (ت852هـ = 1448م)، وله عدة كتب في رجال الحديث منها: «فوائد الاحتفال في بيان أحوال الرجال المذكورين في البخاري»، و«تهذيب تهذيب الكمال» ومختصره «تقريب التهذيب»، و«لسان الميزان»، و«تحرير الميزان»، و«تبصير المنتبه بتحرير المشتبه»[lxiii].

الحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، أعلم أهل زمانه بعلم الحديث وفنونه رجالاً وغريباً ومتناً وسنداً، واستنباطاً للأحكام منه، وكان نفسه يحفظ مئتي ألف حديث، ومؤلفاته في فن الحديث كثيرة، منها «كشف المغطى في شرح الموطأ» و«التوشيح على الجامع الصحيح»[lxiv].

ثالثاً ــ علوم اللغة العربية[lxv]:

وهي كثيرة ومتشعبة، لذلك سأقتصر على الأبرز من العلماء ومؤلفاتهم.

1ــ النحو والصرف:

وأشهر علماء عصر المماليك فيه: محمد بن عبد الله بن عبد الله بن مالك الطائي النحوي (ت 672هـ= 1273م)، من أشهر علماء العربية في تاريخ الإسلام، قال عنه ابن حجر في معرض حديثه عن أبي حيان الغرناطي: «وهو الذي جسر الناس على قراءة كتب ابن مالك، رغبّهم فيها وشرح لهم غامضها ... وكان يقول: وأُلزم أحداً أن لا يقرأ إلا كتاب سيبويه أو في التسهيل لابن مالك»[lxvi].

ترك ابن مالك للغة العربية وأبنائها تراثاً ضخماً وثروة طائلة من المؤلفات المفيدة التي يأتي في مقدمتها كتاباه «ألفية ابن مالك» و«تسهيل الفوائد»، وهي أوفر الكتب حظاً وعناية من العلماء والمحققين، فقد ذكرت المراجع المختلفة أن الألفية شرحها أكثر من أربعين عالماً، كما تناولها بعض العلماء بالإعراب، وبعضهم بالاختصار، ووضع لها عدد منهم الحواشي، واتجه آخرون إلى تحويلها

من نظم إلى كلام منثور، كما ذكرت هذه المراجع أن التسهيل قد شرحه أكثر من خمسة وعشرين عالماً، كما حوّله بعض العلماء إلى كلام منظوم.

ويعد ابن مالك أول من استخدم عبارة «نائب الفاعل»، وكان قبله يسمى: المفعول الذي لم يُسم فاعله، فتابعه النحويون على ذلك إلى يومنا. وأما كتابه «تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد» فلا يقل أهمية وشهرة عن الألفية، وهو الكتاب الذي ألزم أبو حيان الغرناطي طلابه أن يقرؤوا فيه كما مر، وتضمّن هذا الكتاب موضوعات النحو والصرف ومسائلهما في ثمانين باباً، تضمنت مئتين وأحد عشر فصلاً. وأعقب ابن مالك هذا الكتاب بشرح له عندما رأى أنه في حاجة إلى إيضاح وتيسير، فوضع «شرح التسهيل»، وذكر في مقدمته سبب وضعه.

وخدم ابن مالك الحديث الشريف عندما نبّه على الإعراب في أحاديث صحيح البخاري تنبيهاً مفصلاً وصحّح أعاريب العلماء فيها من خلال كتابه «شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح»[lxvii].

محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان، أثير الدين الغرناطي (ت745هـ= 1344م)، وقد نال شهرته من تفسير القرآن الكريم كما تقدم؛ مع إتقانه لعلوم اللغة العربية وإبداعه فيها حتى لُقِّب بشيخ النحاة، وتخرج به أكثر علماء العربية في مصر، واشتهرت تصانيفه في الشرق والغرب، واشتهر منها كتابان «التذييل والتكميل في شرح التسهيل» و«الارتشاف»، وقد قال الصفدي عنهما: «لم يؤلف في العربية أعظم من هذين الكتابين، ولا أجمع ولا أحصى للخلاف والأحوال».

وله من المؤلفات في العربية أيضاً «تذكرة النحاة» في عدة مجلدات، وهو من الكتب المهمة في علم النحو، وقد بلغ من إعجاب تلميذه الصفدي بهذا الكتاب أن نسج على منواله كتاباً سماه «التذكرة الصفدية». ووضع أبو حيان كذلك كتاب «المبدع» في التصريف، وهو كتاب ملخص عن كتاب «الممتع في التصريف» لابن عصفور الإشبيلي (ت 669هـ= 1270م). ومن مؤلفاته «غاية الإحسان» في النحو، و«التجريد لأحكام كتاب سيبويه»[lxviii].

عبد الله بن يوسف بن أحمد بن هشام (ت 761هـ= 1359م)، الذي لُقِّب بشيخ النحاة أيضاً، وقد قال فيه ابن خلدون: «وما زلنا ونحن بالمغرب نسمع أنه ظهر بمصر عالم بالعربية يُقال له ابن هشام أنحى من سيبويه»[lxix].

وصنّف ابن هشام تصانيف كثيرة مفيدة ومشهورة، ويأتي في مقدمتها كتابه «مغني اللبيب عن كتب الأعاريب»، فهو من بين كتبه خاصة أجلها قدراً وأبعدها أثراً، وبين كتب العربية عامة

من أكثرها استيعاباً ونفعاً، ومن خلاله عُدّ ابن هشام صاحب أول كتاب في النحو بمنهج جديد، حيث اختط فيه منهجاً لم يُسبق إليه، حيث قسّمه إلى قسمين كبيرين؛ أفرد القسم الأول للحروف والأدوات، فوضّح وظائفها وطرائق استعمالها مع عرض الآراء المتصلة بها، وتحدث في القسم الثاني عن أحكام وخصائص متنوعة كأحكام الجار والمجرور، وخصائص الأبواب النحوية، وصور العبارات الغريبة.

ومن كتب ابن هشام المهمة «قطر الندى وبل الصدى» وهو متن نحوي شرحه هو، ولا يزال يُدرّس في بعض الجامعات والمدارس. و«الإعراب عن قواعد الأعراب» وهو من أجلّ كتبه وأحسنها تأليفاً وتبويباً، وأهم ما فيه معالجته لمشكلات الإعراب وتعابير المعربين ومصطلحاتهم، فهو كتاب جديد في أسلوبه، جديد في مادته وبحثه. وله «شذور الذهب» و«شرح شذور الذهب» [lxx].

عبد الله بن عبد الرحمن بن عقيل (ت 769هـ= 1367م) الملقب برئيس العلماء، ونحوي الديار المصرية، تتلمذ في النحو على أبي حيان الغرناطي، ويدل على براعته ما شهد به أستاذه هذا، حين قال: «ما تحت أديم السماء أنحى من ابن عقيل»، وأهم ما صنّف «شرح ألفية ابن مالك»، و«شرح كتاب تسهيل الفوائد» لابن مالك أيضاً[lxxi].

أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن القرافي (ت 684هـ= 1285م) الذي ألف كتاباً سمّاه «الاستغناء في الاستثناء»؛ وهو أول دراسة في استثناءات القرآن الكريم، وأول بحث مستقل في الاستثناء[lxxii].

عبد الرحيم بن الحسن بن علي بن عمر الأسنوي (ت 772هـ= 1370م) الذي قدّم في هذا الفن «شرح ألفية ابن مالك»، و«الكواكب الدرية في تنزيل الفروع الفقهية على القواعد النحوية»، واسمه المعتمد هو «الكوكب الدري فيما يتخرج على الأصول النحوية من الفروع الفقهية»، ويُبرز هذا الكتاب الدور الكبير لعلم العربية في الفروق بين المعاني من جهة الألفاظ، وهو أول كتاب يجمع بين دفتيه الفروع الفقهية مُنزّلة على القواعد النحوية[lxxiii].

عبد الرحمن السيوطي، ومصنفاته كثيرة، منها «شرح ألفية ابن مالك» ويسمى «البهجة المضية في شرح الألفية»، وله «الفريدة في النحو والتصريف والخط»[lxxiv].

2ـ البلاغة:

ومن أشهر العلماء فيها:

محمد بن عبد الرحمن بن عمر بن أحمد القزويني (ت 739هـ= 1338م)، صنّف كتابين في البلاغة عُدّا من أشهر كتب هذا الفن، واعتمد عليهما كثيراً كل من جاء بعده، الأول هو «تلخيص المفتاح» وهو تلخيص لكتاب «مفتاح العلوم» للسكاكي يوسف بن أبي بكر (ت 626هـ= 1228م)).

والثاني «الإيضاح». فلم يكتف القزويني بتوضيح وتلخيص المفتاح، بل جعل من كتابه الثاني «الإيضاح» شرحاً للكتاب الأول «تلخيص المفتاح»[lxxv].

خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي (ت 764هـ= 1362م) الأديب البليغ، كتب في مجال البلاغة «الكشف والتنبيه على الوصف والتشبيه»، و«جنان الجناس»، و«فض الختام عن التورية والاستخدام»[lxxvi].

عبد الرحيم بن الحسن بن علي الأسنوي (ت 772هـ= 1370م) الذي أفادنا بشرح جليل سماه «نهاية الراغب في شروح عروض ابن الحاجب» شرح فيه قصيدة عثمان بن الحاجب (ت 646هـ= 1248م) المسماة «المقصد الجليل في علم الخليل» في علم العروض، ويقصد به الخليل بن أحمد الفراهيدي، وأضاف إلى كتاب ابن الحاجب ما ذكره عندما ذكر أنه يشتمل على نوعين آخرين مهمين أهملهما الشرّاح، أحدهما: إعراب ما قد يشكل من ألفاظ هذا النظم، والثاني: ضبط ما يخشى تصحيفه من الألفاظ الواقعة في الأبيات التي استشهد بها الناظم وتفسير معاني تلك الألفاظ[lxxvii].

أحمد بن علي بن عبد الكافي بن علي بن تمام السبكي (ت773هـ= 1371م)، كانت له اليد الطولى في اللسان العربي والمعاني والبيان، ومن تصانيفه فيها كتابه «عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح»[lxxviii]، وقد ترك هذا الكتاب تأثيراً كبيراً في التأليف البلاغي من بعده بما أثاره من قضايا عديدة في التراث البلاغي[lxxix].

3ـ المعاجم (اللغة):

وأول معجم أُلِّف في عصر المماليك وضعه النحوي ابن مالك (ت 672هـ= 1273م)، وسمّاه «إكمال الإعلام بتثليث الكلام» في عدة مجلدات، ويعني التثليث مجموعة من ثلاث مفردات، مركبة من الحروف نفسها، وهذه الحروف تتفق في ترتيبها، وفي تعاقب الحركة والسكون عليها، والتثليث يكون بتحريك حرف أو حرفين بالفتح في المفردة الأولى، والحرف نفسه أو الحرفين يحركان بالكسر في المفردة الثانية، وبالضم في المفردة الثالثة، مثل: (بشرَ، بِشِر، بُشر، وينبَع، ينبِع،

ينبُع)؛ فاحتوى معجم ابن مالك هذا على ما يزيد على (2300) كلمة من كلمات المثلث المتفق المعنى والمثلث المختلف المعنى، وهو عدد لم يجتمع في غيره من كتب المثلث[lxxx].

أما المعجم الشهير «لسان العرب» فقد وضعه ابن منظور محمد بن مكرم بن علي (ت711هـ= 1311م)، وهو أول معجم متداول بين أيدي الخاصة والعامة من الناس حتى يومنا هذا، وهو في حد ذاته مكتبة علمية وأدبية، وقيل عنه إنّه أعظم كتاب أُلف في مفردات اللغة العربية وهو أكبر معجم لغوي ظهر في الأزمنة الماضية، وهو في الوقت نفسه كتاب لغة ونحو وصرف وفقه وآداب وشرح للحديث الشريف وتفسير للقرآن الكريم[lxxxi].

وأبدع خليل بن أيبك الصفدي كعادته معجماً ذا موضوع جديد، سماه «غوامض الصحاح» وهو مختار على معجم الصحاح للجوهري، ولا يقدِّم فيه جديداً من حيث مادته، ولكنه يقدم جديداً من حيث دراسة تاريخ المعجمات، حيث اتبع فيه أسلوباً لم يسبقه إليه أحد، فكلمة الغموض هنا لا تتجه إلى ما يُسمى بغريب اللغة، وإنما تتجه إلى غموض الاشتقاق وصعوبة رد الكلمة إلى أصلها، ولذلك كان يذكر بعض تلك الغوامض ولا يذكر معناها، لأن معناها من الوضوح بحيث لا يخفى على أحد، ولكن الصعوبة تكمن في رد الكلمة إلى أصلها[lxxxii].

و ألّف أحمد بن علي المقرئ الفيومي (ت بعد 770هـ= 1368م) معجمه «المصباح المنير في غريب الشرح الكبير»، وخصصه للألفاظ الواردة في كتب الفقه[lxxxiii]. ووضع الفيروز آبادي محمد بن يعقوب بن إبراهيم بن عمر (ت817هـ = 1414م) «القاموس المحيط» الذي اختصر فيه كتاباً في اللغة سماه «اللامع المُعلم العجاب بين المحكم والعباب» [lxxxiv].

4ـ الأدب.

ـ الكتابة:

تنوع التأليف الأدبي في عصر المماليك بين كتب خاصة تقتصر على موضوع بعينه، وكتب جامعة متعددة الموضوعات تشبه كتب الأمالي والمحاضرات التي اشتهرت في العصور السابقة. وأما طريقة الكتابة، فإنها اعتمدت على الإغراق في التورية والطباق ومراعاة النظير، وغير ذلك من أنواع البديع، لذلك كانت طويلة السجع، فأُعجب الكتّاب بهذه الطريقة فأخذوا يحاكونها ويجهدون جهدهم في بلوغ أوجها، وقد ظهر من النقاد في ذلك العصر من ذم هذه الطريقة كابن خلدون الذي نعى على كتّاب عصره شغفهم بالبديع وأخذ عليهم إبعادهم في التكلف[lxxxv].

وظهرت طائفة كبيرة من الكُتّاب الذين أبدعوا في كتاباتهم، وخطّوا مؤلفات أدبية قيمة، منهم الكاتب الناثر الناظم ــ كما وصفه علماء عصره ــ محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر (ت 692هـ = 1292م)، والملقب بشيخ أهل الترسل.

وهذه الموهبة هي التي أهلته ليتسلم رئاسة ديوان الإنشاء في عهود ثلاثة من سلاطين المماليك: الظاهر بيبرس، والملك المنصور قلاوون، والملك الأشرف خليل، وظهرت هذه الموهبة كثيراً في كتبه التاريخية التي سأتكلم عنها لاحقاً، كما ظهرت في أنواع الرسائل التي كان ينشئها في ديوان الإنشاء، ويذكر القلقشندي له كتاباً أدبياً سمّاه «تمائم الحمائم»[lxxxvi].

ومن كُتّاب ذلك العصر محمود بن سليمان بن فهد بن محمود الحلبي (ت725هـ=1324م) المعروف بشهاب الدين محمود، ولد عام 644هـ = 1246م، كتب الإنشاء في دمشق أولاً، ثم انتقل إلى الديار المصرية عقب موت محيي الدين بن عبد الظاهر، وتولى ديوان الإنشاء فيها، ثم عاد إلى دمشق ليتولى كتابة السر فيها، وكان كابن عبد الظاهر بارعاً في النثر والنظم، والمشار إليه بها في البلاد الشامية والمصرية. ومن أهم أعماله «حسن التوسل في صناعة الترسل»، و«كتاب في وصف الخيل»، و«رسالة في وصف البندق»، و«مقامة العشاق»، و«منازل الأحباب»[lxxxvii].

وهناك العالم أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري (ت749هـ = 1348م) الذي عمل في ديوان الإنشاء في دمشق ثم في مصر، كما عمل كاتباً للسر، وكان كاتباً فقهياً، وأجمع معاصروه على براعته وبلاغته في الكتابة؛ قال الصفدي عنه: «إمام أهل الآداب وأحد رجالات الزمان كتابة وترسلاً»، وقال عمر بن الوردي: «منزلته في الإنشاء معروفة، وفضيلته في النظم والنثر موصوفة». وقد أنشأ العمري كثيراً من الرسائل والمكاتبات والتواقيع، وصنّف كتاباً ثميناً في هذا المضمار وهو «التعريف بالمصطلح الشريف»، والمقصود بالمصطلح الشريف مصطلح الكتابة الديوانية والقوانين التي تراعى عند المكاتبات الصادرة عن ديوان الإنشاء، وأطلق على الكتب المتعلقة بهذا الموضوع اسم «الدساتير»، حتى إن القلقشندي أطلق على هذا الكتاب اسم «الدستور»[lxxxviii].

ونصل إلى أديب الزمان خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي (ت674هـ = 1362م)، وهو وإن كتب في تاريخ الرجال والتراجم والطبقات، إلا أنه كان من أصحاب الأدب؛ بل كان شاعراً وأديباً، ووُصف بأديب الزمان والشاعر المجيد، فكان بارعاً في الرسائل والنظم والنثر حتى ساد بهم جميعاً لما امتلك من قوة بلاغية كما مر في بحث البلاغة. وتدل مؤلفاته على ما نقول، وأولها كتابه «لوعة الشاكي ودمعة الباكي»؛ وهو من أروع ما كُتب في الأدب، ودار موضوعه

حول العشق والغرام، وما يتركه على العاشق من الوله والهيام، وهو لا يتحدث عن ذلك حديثاً مباشراً، بل يعكسه للقارئ من خلال قصة يرويها[lxxxix]. ومن كتبه «كشف الحال في وصف الخال»؛ وتناول فيه وصف الخال (الشامة) بإيراد الأدب والشعر، ولم يكتف بذلك بل تعداه إلى حال الخال في اللغة والفلسفة والطب وعلم الجمال ليكون كتاباً شاملاً للمعاني، وهو كتاب انفرد ببحث هذا الموضوع، فلم يسبقه إليه أحد.

ومن كتب الصفدي الأدبية «تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون»؛ وهي الرسالة المعروفة بالجدية، وهي رسالة هزلية كتبها أحمد بن عبد الله بن غالب بن زيدون القرطبي (ت463هـ = 1070م على خلاف) على لسان ولّادة بنت المستكفي بالله التي هي إحدى الظريفات من نساء العرب. ومنها «نصرة الثائر على المثل السائر» وهو من كتب النقد الأدبي، ويحتل مكانة كبيرة بين قافلة كتب النقد التي تصلح مرآة لعصورها، وقد كتبه الصفدي لنقد ما أخذه على الأديب الكاتب محمد بن محمد بن عبد الكريم بن الأثير (ت 637هـ = 1239م) في كتابه «المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر».

ومن الثابت ــ كما يذكر المختصون ــ أن كتاب «المثل السائر» هو آخر حلقات السلسلة في كتب النقد العربية قبل العصر الحديث، ويجف بعده التأليف في هذا الميدان إلى أن يأتي الصفدي بكتابه «نصرة الثائر»، فكان هذا الكتاب أكمل مصدر نستشف من خلاله مناهج النقد ومجمل مسائله وأحواله. ويشبه هذا الكتاب تقريباً كتاب الصفدي الآخر «تصحيح التصحيف وتحرير التحريف» حيث جمع فيه خلاصة الجهود التصويبية التي وردت في أبرز الكتب المؤلفة قبله في لحن العوام والتصحيف والتحريف[xc].

ومن أهم الأدباء ابن حجة الحموي تقي الدين أبو بكر بن علي الحموي (ت837هـ = 1433م)، وله من المصنفات «ثمرات الأوراق»، و«خزانة الأدب»[xci]. ومنهم محمد بن حسن بن علي (ت859هـ = 1455م) وهو الذي فاق أهل العصر في علوم الأدب، وألف كتباً منها «تأهيل الغريب»، و«حَلبة الكميت»[xcii].

ــ الشعر:

الشعر في عصر المماليك كثير جداً، وقد ولّد الشعراء عدداً من المعاني من أشعار القدماء من غير أن يخرج ذلك بهم إلى ابتكار، وانعكست على شعر ذلك العصر ملامح الحياة وأصداء أحداثها السياسية والاجتماعية والفكرية، وربما كان أول أثر يواجهه القارئ في هذا الشعر الإحساس بالضعف الموضوعي وقلة الابتكار، والإيغال في العامية بسبب الابتعاد عن حلقة الحكام والرؤساء،

فعوض ذلك بين عامة الشعب، ذلك أن الحكام كانوا أعاجم لا يفهمون الشعر، وإذا فهموه فهم لا يتذوقونه، ومن ثم لا يولونه اهتماماً أو رعاية كما كان يفعل ذلك خلفاء العرب وأمراؤهم، وربما كان سلاطين المماليك أميل إلى الشعر العامي لأنه يجري بلغة الكلام العادي فلا يجهدهم التعرف على معانيه، ولذلك قرّبوا شعراء العامية منهم.

ويُلاحظ في ذلك العصر قلة الشعراء المحترفين، وشيوع نظم الشعر بين كثير من طبقات المتعلمين، ولاسيما الكتّاب والقضاة والفقهاء، وإن لم يصل شعر كثير من العلماء إلى رتبة الشعر الجيد، كما يلاحظ استخدام الشعراء الألفاظ والمعاني الدينية المستمدة من القرآن ومن الحديث ومن القصص الدينية وحياة الزهّاد والصوفية.

وتوزعت اتجاهات شعر عصر المماليك في ثلاثة تيارات واضحة من حيث الصياغة والبناء الفني، وهي: الاتجاه التقليدي، أو شعر القصيد، وفيه حافظ الشعراء على الصياغة القديمة بكل مقوماتها وأصولها. والاتجاه البديعي الذي يلعب الشعراء فيه بضروب البديع المنوعة. والاتجاه الشعبي الذي يسلك سبيل الكلام الجاري، ويكون بلفظ عربي يختلط بعبارات عامية أو ألفاظ دارجة. وانتهج كثير من الشعراء سبيل الصناعة اللفظية، وأولعوا بأنواع البديع، فلم يتركوا نوعاً إلا وأبرزوه في أشعارهم، غير أنّ هذه النزعة لم تفسد الشعر إفسادها النثر، لأن تقيد الشعر بالوزن والقافية حال من دون تجاوز الحد في البديع وتفاقم خطره.

وكثرت موضوعات الشعر وتعددت، وكان منها المديح الذي نزل عما كان عليه في العصور الغابرة لقلة اهتمام الشعراء به، وقلة المحترفين له لضعف الجائزة، فاتجهت المدائح نحو الأصدقاء والزملاء والعلماء، ونحو مدح رسول الله ﷺ، ومنها الفخر الذي اقتصر على الفخر بالانتصارات العسكرية الكثيرة التي تحققت في ذلك العصر، ويتصل بهذا الموضوع ما عُرف بالرثاء، كرثاء المدن التي كانت تسقط تحت يد الأعداء، وهناك أشعار تناولت مسرات الحياة ومتعها كالغزل والخمر والوصف، وموضوعات أخرى تغايرها كالهجاء والهزل[xciii].

وباستقراء المصادر والمراجع نجد أن أبرز شاعرين عاشا في العصر المملوكي هما: صفي الدين الحلي وابن نباته، ولا خلاف على أن صفي الدين الحلي عبد العزيز ابن سرايا (ت 750هـ = 1349م) زعيم الشعراء في عصره، فقد أجاد في القصائد الطوال والمقطوعات والموشحات والأزجال، وتناول كل الأغراض الشعرية، فجاء شعره عذباً ولفظه سهلاً، وتواترت فيه إلى جانب الرقة والسهولة جزالة ومتانة، فكانت البلاغة الشعرية عنده إفصاحاً وبياناً في قوالب محكمة من النسيج الشعري، ومن شعره:

أيا من خصّـــه الله بحسن الخلق والطلعة
ويا من هو بالملك أحق الناس بالشفعة
ألا فانظر إلى الأزها ر في أنوارها لمعة[xciv]

أمّا محمد بن محمد بن محمد بن الحسن بن نباتة (ت 768هـ = 1366م) فيرى النقاد أنه أشعر شعراء عصره، وُلد في مصر عام 686هـ = 1287م، وتأدب فيها، واشتغل بفنّي النظم والنثر، حتى صار شاعراً مرموقاً، وديوان شعره مطبوع، وأختار منه قوله:

ولي صديق أرجفته مدحتي وكان ظـــني أنه لا يرتجـــف
فقل له يا بحر علم ونـــدى أنا الذي لو جاء للبحر نشف[xcv]

وعُرف في ذلك العصر الشاعر البوصيري محمد بن سعيد بن حماد بن محسن البوصيري (ت695هـ = 1295م)، وقد برع في النظم، وشعره غاية في الحسن واللطافة وعذوبة الألفاظ، واشتُهر بقصيدته المسماة «البردة» التي استشفع بها عند الله عز وجل من فالج أصابه، ومطلع هذه القصيدة:

أمِن تذكر جيران بذي سلم مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم[xcvi]

وقد نظم البوصيري أشعاراً في الأغراض الشعرية المختلفة؛ كالمدح والهجاء والدعابة، وتظهر في مدائحه آثار البيئة المصرية[xcvii].

ومن الشعراء ابن حجة الحموي أبو بكر بن علي (ت837هـ1433م) صاحب البديعة المشهورة وشرحها، ومن أشهر قصائده تلك القصيدة التي عارض بها قصيدة الأديب جمال الدين بن نباتة:

يا ساهرَ اللحظَ حالي فيك مشهور وكاسرَ الجفن قلبي منك مكســـور
أمرتَ لحظكَ أن يسطو على كبدي يا صدقَ من قال إن السيف مأمور[xcviii]

ومنهم علي بن محمد بن علي بن عبد الله بن مليك الحموي (ت 917هـ =1511م)، و ديوانه المسمى: «النفحات الأدبية من الزهرات الحموية». ومن شعره قوله:

إن يكن الخنجر ريحانكم وراحكم شرب دم الناس
فنحن في الحرب أولو قوة مع شدة السطوة والباس[xcix].

رابعاً ــ علم التاريخ[c]:

يقول المستشرق جيب: «يتركز الإنتاج الأكبر في عصر المماليك في مجال التأريخ ... إلا أن سورية ومصر تفردتا بسلسلة متتالية من علماء التاريخ المخلصين في القرنين الثامن والتاسع الهجريين

= الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، حتى إنّ مجرد ذكر أسمائهم وأهم أعمالهم سيأخذ من وقتنا الكثير»[ci].

ومن خلال متابعاتي المكثفة للفنون التاريخية في عصر المماليك، فإني لا أُبالغ إن وصمتُه بالعصر الذهبي لعلم التاريخ، وعصر المؤرخين العمالقة، ولا أبتعد عن الحقيقة أبداً إن أقررت أنه عصرُ أشهر المؤلفات التاريخية عبر العصور العربية الإسلامية، بل هو عصر الموسوعات الكبرى، والأسطر القادمة تدل على شيء من ذلك فقط.

1ــ التاريخ العام:

ومن أشهر من كتب فيه: يوسف بن قزا أوغلي التركي المعروف بسبط ابن الجوزي (ت654هـ = 1256م)، وله «معادن الإبريز»، ويقع هذا الكتاب في تسعة عشر مجلداً. وله «مرآة الزمان في تاريخ الأعيان»، ويقع في أربعين مجلداً [cii].

يحيى بن شرف النووي (ت677هـ = 1278م)، وله «مرآة الزمان في تاريخ الأعيان»، وكتابه هذا عبارة عن كتاب مختصر، وهو من أول الخلق، ورتبه على فصول وأبواب[ciii].

أبو الفداء إسماعيل (ت 732 هـ = 1331م)، و له «مختصر تاريخ البشر»، ويقع في قسمين: تاريخ الجاهلية، وتاريخ الإسلام حتى سنة 729هـ=1329م[civ].

بيبرس بن عبد الله المنصوري الدوادار (ت 725هـ = 1324م)، صنّف تاريخاً كبيراً سمّاه «زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة» في عدة مجلدات، تكلم فيه عن التاريخ الإسلامي العام حتى عام 724هـ = 1324م، وقال في مقدمته: «وكلِفت بوضعه وسميته: زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، وسقته بتوالي سني الملة المحمدية حتى أنتهي إلى بداية الدولة النيرة التركية القائمة الآن بالممالك الإسلامية»[cv].

أبو بكر بن عبد الله بن أيبك الدواداري (ت732هـ = 1331م)، كتب تاريخاً عاماً في عدة مجلدات بدأ به من الهجرة النبوية ووصل به حتى عصره، وسمّاه «كتر الدرر وجامع الغرر»[cvi].

الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر بن حبيب (ت 779هـ =1377م)، وله في هذا الفن كتاب «أخبار الدول وتذكار الأول» وهو الكتاب نفسه المسمى «جهينة الأخبار في ملوك الأمصار»[cvii].

إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (ت774هـ = 1372م)، وله الكتاب الشهير «البداية والنهاية» في التاريخ العام من قصة الخلق حتى السنوات الأخيرة من حياة المؤلف[cviii].

محمد بن عبد الرحيم بن علي بن الحسن المصري المعروف بابن الفرات (ت807هـ = 1404م)، كتب في التاريخ العام كتاباً كبيراً جداً في نحو عشرين مجلداً، وصل فيه إلى عام 803هـ = 1400م، واسم الكتاب «تاريخ الدول والملوك»[cix].

إبراهيم بن محمد بن آيدمر بن دقماق (ت 809هـ = 1406م) المولود نحو عام 750هـ = 1349م، توجه بكليته نحو دراسة التاريخ، حتى وصفه السخاوي بمؤرخ الديار المصرية في وقته، وألف تآليف كثيرة، منها كتابه «الجوهر الثمين» الذي جمع فيه أخبار الخلفاء والسلاطين مبتدئاً بسيرة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ومنتهياً بالسلطان الظاهر برقوق[cx].

محب الدين محمد بن محمد المعروف بابن الشحنة الحلبي (ت815هـ = 1412م)، وله «روضة المناظر في أخبار الأوائل والأواخر»[cxi]. وعبد الرحمن بن محمد البسطامي الأنطاكي (ت843هـ = 1439م)، وكتابه «نظم السلوك في تواريخ الخلفاء والملوك»، وهو كتاب مختصر من الهجرة إلى سنة 806هـ = 1403م[cxii].

أحمد بن علي المقريزي (ت845هـ = 1441م)، وكتابه: «الدرة المضيئة في تاريخ الدولة الإسلامية»، وهو من مقتل عثمان رضي الله عنه إلى أيام المستعصم آخر خلفاء بني العباس[cxiii]. وبدر الدين محمد بن أحمد العيني (ت855هـ = 1451م)، وله «عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان»، وهو تاريخ مرتب على السنين في عشرين مجلداً[cxiv].

عبد الرحمن السيوطي، وله «بدائع الزهور في وقائع الدهور»، وهو تاريخ منتقى من اثنين وثلاثين تاريخاً، حيث ذكر نوادر الوقائع من مبدأ الخلق إلى زمانه، وقدّم الأنبياء ثم الخلفاء ثم الملوك، لكنه لم يكمله. وله أيضاً «تاريخ الخلفاء»، وقد ترجم فيه للخلفاء من عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه إلى زمانه، وله أيضاً «تحفة الظرفاء بأسماء الخلفاء»[cxv].

2ـ تاريخ المدن والدول:

محمد بن عبد العزيز الإدريسي المصري (ت649هـ = 1251م)، وكتابه «المفيد في أخبار الصعيد»[cxvi]. ومنصور بن سليمان الهمداني الإسكندراني (ت673هـ = 1274م)، وله «تاريخ الإسكندرية» في مجلدين[cxvii]. وجعفر بن عبد العزيز الإدريسي الشريف الفاوي (ت 696هـ = 1296م)، ذكر الإمام السيوطي أنّ له تصنيفاً عن «تاريخ القاهرة»[cxviii].

حسن بن أبي محمد عبد الله العباسي الهاشمي الصفدي (ت بعد عام 716هـ = 1316م)، الذي كتب في عام 716هـ = 1316م مصنفه الذي سمّاه «نزهة المالك والمملوك في مختصر سيرة من ولي مصر من الملوك»، يبحث فيه ويؤرخ لتاريخ مصر منذ عصر الفراعنة والأنبياء حتى عام 717هـ = 1317م[cxix].

وبيبرس بن عبد الله المنصوري (ت 725هـ = 1324م) الذي ألف كتابه «التحفة الملوكية»، وسجل فيه تاريخ دولة المماليك من اعتلائهم السلطة عام 648هـ = 1250م حتى عام 711هـ = 1311م[cxx].

محمد بن عبد الوهاب بن المتوج بن صالح الزبيري (ت 730هـ = 1329م)، ألف تاريخاً لمصر سمّاه «إيقاظ المتغفل وإتعاظ المتأمل»[cxxi]. وعلم الدين أبو القاسم بن محمد البرزالي (ت 739هـ = 1338م)، وله «تاريخ مصر ودمشق» وهو تاريخهما حتى عام 738هـ = 1337م [cxxii]. وللإمام الذهبي كتاب «مختصر تاريخ بغداد»[cxxiii].

محمد بن قاسم بن محمد النويري الإسكندراني (ت بعد عام 767هـ = 1365م) الذي صنّف تاريخاً للإسكندرية، بدأه بتاريخ فتحها، ثم ساق الأخبار حتى وصل إلى حادثة ملك الفرنج لها عام 767 هـ = 1365م، وسمّى كتابه هذا بحسب ما ذكر بروكلمان «الإلمام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في الواقعة الإسكندرانية في عام 767هـ= 1365م وعودها إلى حالتها المرضية»، وذكر أنه يقع في ثلاثة مجلدات[cxxiv].

إبراهيم بن محمد بن آيدمر بن دقماق، وله في هذا الفن كتاب تاريخي كبير مرتب على الأعوام، سمّاه «نزهة الأنام في تاريخ الإسلام»، أكثره عن مصر، ويقع في نحو (12) مجلداً، انتهى منه عام 779هـ = 1377م، وحُقق منه المخطوطات المتضمنة من عام 628هـ = 1230م حتى عام 659هـ = 1261م[cxxv].

عمر بن أحمد بن هبة الله، كمال الدين بن العديم (ت 660هـ = 1261م)، كتب تاريخاً كبيراً عن مدينة حلب يعد المصدر الأول عنها سمّاه «بغية الطلب في تاريخ حلب»، واستخلص منه كتاباً آخر أطلق عليه اسم «زبدة الحلب من تاريخ حلب»[cxxvi]. وعز الدين محمد بن إبراهيم بن شداد (ت684هـ = 1285م)، وله «الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة»[cxxvii].

عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان، أبو شامة المقدسي (ت665هـ = 1266م)، من مصنفاته «الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية» في عدة مجلدات، أرّخ فيه كما هو واضح من عنوانه لدولتي نور الدين محمود بن زنكي وصلاح الدين الأيوبي، واختصره

بكتاب آخر أطلق عليه اسم «عيون الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية» في عدة مجلدات، وتضمن الفترة الممتدة من عام 521هـ = 1127م إلى نحو عام 590هـ = 1194م، أي الفترة نفسها التي تضمنها كتاب الروضتين تقريباً[cxxviii].

علي بن موسى بن عبد الملك بن سعيد المغربي الغرناطي (ت 685هـ = 1286م)، وكتب في هذا الفن «المشرق في حلى المشرق» و«المغرب في حلى المغرب»، وضم هذا الكتاب خمسة عشر سفراً، ستة منها لمصر، ومثلها للأندلس، وثلاثة لبلاد المغرب، وشارك ابن سعيد في كتابته ستة من أدباء الأندلس الذين تعهدوه بالتنقيح والتكميل واحداً بعد واحد على مدى مئة وخمسة عشر عاماً[cxxix].

إبراهيم بن عبد الرحمن بن إبراهيم الفزاري المصري الصعيدي (ت 729هـ = 1328م)، ألّف كتاباً سمّاه «الإعلام بفضائل الشام»[cxxx]. والأمير بدر الدين بكداش الفاخري (ت 745هـ = 1344م) القائد العام للجيش المملوكي، وكتابه «تاريخ سلاطين مصر والشام وحلب وبيت المقدس وأمرائها»[cxxxi].

أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري (ت 749هـ = 1348م) الذي أرّخ في موسوعته «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» لعدة دول، منها الدولتين الأموية والعباسية، وأضاف إلى ذلك كتابه «ممالك عبّاد الصليب»، ووصف فيه ملوك فرنسا وألمانيا وأهل جنوة والبنادقة في عصره، وتحدث عن أحوالهم السياسية والاجتماعية وعلاقاتهم مع المسلمين[cxxxii].

خليل بن أيبك الصفدي، وله «أمراء دمشق في الإسلام»، وذكر فيه «من وُلِّي دمشق المحروسة في الإسلام ودخلها من الخلفاء وغيرهم، مرتبين على حروف المعجم»[cxxxiii]. ويوسف بن تغري بردي (ت874هـ = 1470م)، وله «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» وهو تاريخ كبير مرتب على السنين ابتدأ فيه من الفتح العمري إلى زمانه، وذكر من ولي مصر من السلاطين والنواب في كل سنة ذكراً مبسوطاً، وذكر من توفي من الأعيان والعلماء والملوك[cxxxiv]. وعبد الوهاب بن عمر الحسيني الدمشقي (ت875هـ = 1470م)، وله «الروض المغرس في فضائل بيت المقدس»[cxxxv].

3ـ تراجم الأعلام:

كتب التراجم المؤلفة في هذا العصر هي من دون مبالغة أوسع وأكثر ما وصلنا من أي عصر من العصور، فقد بلغ المؤلف الواحد منها عشرات المجلدات، ولو أعطيتك أمثلة سريعة لزالت الدهشة عنك، انظر مثلاً الوافي بالوفيات لخليل الصفدي، أو سير أعلام النبلاء للذهبي، أو طبقات

الشافعية الكبرى للسبكي، أو المنهل الصافي لابن تغري بردي، وهكذا غير هذه الكتب، التي أبدأ بذكر أشهرها من خلال مصنفيها.

أحمد بن محمد بن إبراهيم بن خلكان (ت 681هـ = 1282م)، واشتهر بكتابه «وفيات الأعيان» الذي ترجم فيه لمشاهير أعيان علماء العصور الإسلامية[cxxxvi]. وأبو شامة المقدسي وكتابه «الذيل على الروضتين» في تراجم القرنين السادس والسابع الهجريين = الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين[cxxxvii]. وللحافظ الذهبي: «تاريخ الإسلام»، جمع فيه الحوادث والوفيات من أول الإسلام وحتى سنة 700 هـ = 1300م مرتباً على السنين، واختصره في كتابه: «العبر في خبر من غبر»[cxxxviii].

وأحمد بن القاسم بن خليفة الحكيم المعروف بابن أبي أصيبعة (ت 668هـ = 1269م)، ألّف كتاباً في تراجم الأطباء عبر العصور مع ذكر منجزاتهم، وسمّاه «عيون الأنباء في طبقات الأطباء»[cxxxix]. والحافظ محمد بن أحمد الذهبي (ت 748هـ = 1348م) الذي وضع كتابه «تذكرة الحفاظ» في عدة مجلدات في تراجم رجال الحديث النبوي أو ما يسمى بطبقات الحفاظ، وكتابه الآخر «معرفة القرّاء الكبار على الطبقات والأعصار» [cxl].

جعفر بن ثعلب بن جعفر بن علي الأدفوي (ت 748هـ = 1347م) مؤرخ الصعيد الأول، قدم في فن التراجم كتابين، يعد الأول منهما من أهم كتب التراجم التخصصية حيث جمع فيه أخبار علماء صعيد مصر في عصره في مختلف مناطقه، ولم يترجم للأحياء منهم إلا لحاجة أو غرض خاص، وسمّاه «الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد»، وبلغت فيه التراجم (594) ترجمة، وجاء كتابه الثاني «البدر السافر وتحفة المسافر» على أسلوب وفيات الأعيان لابن خلكان، واقتصر فيمن ترجم لهم على أعلام القرن السابع الهجري = الثالث عشر الميلادي[cxli].

وشارك ابن فضل الله العمري في هذا الفن من خلال مؤلفين هما «ذهبية العصر» و«مختصر قلائد العقيان»، وترجم في كليهما لمشاهير القرن الثامن الهجري = الرابع عشر الميلادي مع ذكر أخبارهم، وخصص من موسوعته مسالك الأبصار جزءاً كاملاً في تراجم رجال التصوف عبر مختلف العصور و حتى عصره[cxlii]. و ترك أحمد بن عبد القادر بن أحمد بن مكتوم بن محمد القيسي (ت 749هـ = 1348م)، تصنيفاً في تراجم علماء النحو العربي، سمّاه «الجمع المتناه في أخبار النحاة»[cxliii].

وخليل بن أيبك الصفدي، صاحب «الوافي بالوفيات»، وهو من أوفى كتب التراجم وأوسعها في المكتبة العربية الإسلامية، ويقع في ثلاثين مجلداً تقريباً. ولا يقل كتابه الآخر «أعيان العصر

وأعوان النصر» أهمية عن الوافي، وترجم فيه للأعلام الذين أدركهم أو لقيهم في حياته أو أخذ عنهم، أو كانوا في زمنه في جميع أنحاء الخلافة الإسلامية، وهذا يعني أنه تناول سير الأعيان منذ عام 696هـ = 1296م، فضم هذا الكتاب أكثر من ألفي ترجمة. وأبدع الصفدي كتاباً جديداً في موضوعه لم يسبقه إليه أحد عندما ترجم لمشاهير علماء الأمة العميان في كتاب خاص بذلك فقط، سمّاه «نكت الهميان في نكت العميان»[cxliv].

محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن الكتبي (ت 764هـ= 1362م)، ذكر المؤرخون أنه جمع تاريخاً، والمقصود به كتابه «فوات الوفيات»، وهو الذي يذكر في مقدمته أنه جمعه ورتبه بعد أن اطلع على كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان، فوجد فيه نقصاً في تراجم بعض الفضلاء، فأضاف تراجم عديدة، وجعله في أربعة مجلدات[cxlv].

عبد الوهاب بن عبد الكافي بن علي بن تمام السبكي الذي وضع عدة كتب أشهرها «طبقات الشافعية الكبرى» وترجم فيه لعلماء الشافعية حتى عصره، وتكاد تكون كل ترجمة فيه كتاباً مستقلاً[cxlvi]. وعبد الرحيم بن الحسن بن علي بن عمر الأسنوي (ت 772هـ = 1370م)، وكتب «طبقات الشافعية» ترجم فيه لمشاهير الشافعية في عدد من العصور[cxlvii].

إسماعيل بن كثير الدمشقي وكتابه «جامع المسانيد والسنن الهادي لأقدم السنن»، وترجم فيه لرواة الحديث نقلاً عن كتب الحديث الستة مرتباً إياها على حروف المعجم[cxlviii]. ومحمد بن رافع بن هجرس السلامي (ت 774هـ = 1372م)، وأشهر مصنفاته كتاب «الوفيات»، وذيّل به على كتاب «المقتفى لتاريخ أبي شامة» لعلم الدين أبي القاسم بن محمد البرزالي (ت 739هـ = 1338م) والمعروف عند المؤرخين باسم «وفيات البرزالي»، جمع فيه (950) ترجمة ممن كانت وفياتهم بين عامي 737ـ 774هـ = 1336 ـ 1372م[cxlix].

عبد القادر بن محمد القرشي (ت 775هـ = 1373م)، صنف أول كتاب في طبقات الحنفية على الإطلاق، وسمّاه «الجواهر المضية في طبقات الحنفية» في عدة مجلدات، ورتبه على حروف المعجم مبتدئاً بترجمة أبي حنيفة النعمان مؤسس المذهب[cl]. ووضع إبراهيم بن علي بن محمد بن فرحون اليعمري المالكي المدني (ت799هـ = 1396م)، كتاباً لخدمة مذهبه المالكي سمّاه «الديباج المذهّب في معرفة أعيان علماء المذهب»[cli].

4ـ كتب السير:

وقد ازدهرت الكتابة في فن السير في عصر المماليك، فأقبل المؤرخون على الكتابة في سيرة رسول الله ﷺ، وفي السير الشخصية للسلاطين والعلماء والأئمة والمشهورين.

أ ــ في سيرة رسول الله ﷺ:

وقد نشط التأليف في سيرة رسول الله ﷺ في عصر المماليك بشكل لافت، فظهرت عشرات الكتب عن ذلك، ولا أستطيع إلا أن أعطي نماذج عنها هنا؛ فعبد العزيز بن عبد السلام السلمي الدمشقي (ت660هـ = 1262م)، ألّف «بداية السُّول في تفضيل الرسول»[clii]. ولحسن بن أحمد بن زفر الإربلي الدمشقي (ت726هـ = 1326م) كتاب «السيرة النبوية»[cliii]. وكتب الشيخ فتح الدين محمد ابن محمد بن محمد بن أحمد بن عبد الله، المعروف بابن سيد الناس (ت 734هـ = 1333م) العديد من المؤلفات في سيرة رسول الله ﷺ، منها «السيرة الكبرى» و«السيرة الصغرى» و«بشرى اللبيب بذكرى الحبيب»؛ وهي منظومة شعرية في مدح رسول الله ﷺ، و«عيون الأثر» في عدة مجلدات، و«نور العيون في تلخيص سيرة الأمين والمأمون نبينا محمد ﷺ»[cliv].

وابن قيم الجوزية (ت751هـ = 1350م)، وخدم هذا العلم الشريف بمؤلف مهم أسماه «زاد المعاد في هدي خير العباد» في عدة مجلدات [clv]. ومغلطاي بن قليج ابن عبد الله البكجري الحنفي (ت762هـ = 1360م)، وكتابه «الزهر الباسم»[clvi].

عبد العزيز بن محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة (ت767هـ = 1365م)، وصنّف «السيرة الكبرى» و«السيرة الصغرى»، وذكر له بروكلمان مختصراً في سيرة رسول الله ﷺ، ومتناً في شمائل المصطفى[clvii]. ومحمد بن الحسن بن عبد الله الحسيني الدمشقي (ت776هـ = 1374م)، وكتابه: «شفاء السقام في سيرة الأنام»[clviii].

عبد الله بن علي بن أحمد بن عبد الرحمن بن حديدة المصري (توفي بعد عام 779هـ = 1377م)، الذي وضع كتاباً جديداً في اختصاصه لم يسبقه إليه أحد فيما علمت، خصصه للحديث عن كتب الرسول ﷺ ورسائله إلى ملوك الأرض العرب والعجم، سمّاه «المصباح المضيء في كتاب النبي الأمي ورسله إلى ملوك الأرض من العرب والعجم»[clix]. ومحمد بن أبي بكر بن ناصر الدين الدمشقي (ت842هـ = 1438م)، وله «بواعث الفكرة في حوادث الهجرة»[clx].

أحمد بن علي المقريزي (ت845هـ = 1446م)، وله «إمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والأموال والحفدة والمتاع»[clxi]. وأحمد بن محمد بن أبي بكر القسطلاني المصري (ت923هـ = 1517م)، وكتابه «المواهب اللدنية بالمنح المحمدية»[clxii].

ب ــ السير الشخصية:

إسماعيل بن حامد القوصي الدمشقي (ت653هـ = 1255م)، وله: «بغية الراجي ومنية الأمل في محاسن دولة السلطان الملك الكامل»[clxiii]. ويحيى بن شرف النووي (ت676هـ = 1277م)، وكتابه «مناقب الشافعي والبخاري»[clxiv]. ومحب الدين أحمد بن عبد الله الطبري (ت694هـ = 1295م)، وكتابه «السمط الثمين في مناقب حضرة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها»[clxv].

محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر (ت 692هـ = 1292م)، الذي كان له شأن في أثناء حكم الظاهر بيبرس والملك المنصور قلاوون والملك الأشرف خليل، وعمل عند جميع هؤلاء في ديوان الإنشاء، فوضع لكل سلطان منهم وعصره كتاباً خاصاً، فألّف عن الظاهر بيبرس «الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر»، وعن المنصور قلاوون «تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور»، وعن الأشرف خليل «الألطاف الخفية من السيرة الشريفة السلطانية الأشرفية»[clxvi].

هبة الله بن عبد الله بن سيد الكل القفطي (ت 697هـ = 1297م)، كتب مؤلفاً سمّاه «الأنباء المستطابة في مناقب الصحابة والقرابة»[clxvii]. وأحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله الإسكندري الشاذلي (709هـ = 1309م)، وكتابه «لطائف المنن»، وهو في مناقب الشيخ أبي العباس المرسي أحمد بن عمر الإسكندري (ت 606هـ = 1209م)، ومناقب الشيخ أبي الحسن الشاذلي علي بن عبد الله بن عبد الجبار بن تميم (ت 656هـ = 1258م)[clxviii]. وابن منظور (ت 711هـ = 1311م) وكتابه «أبو نواس»[clxix].

عيسى بن مسعود بن منصور بن يحيى الزواوي (ت 743هـ = 1342م)، وألف في سيرة صاحب مذهبه الإمام مالك كتاباً سمّاه «تاريخ ومناقب مالك» [clxx]. وعبد القادر بن محمد بن محمد القرشي (ت 775هـ = 1373م) الذي كتب عن سيرة صاحب مذهبه أبي حنيفة النعمان في كتاب أسماه «البستان في فضائل النعمان»[clxxi].

الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر بن حبيب الذي كتب كتاباً عن السلطان المنصور قلاوون وأولاده الذين وصلوا إلى عرش السلطنة، وسماه «تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه»، بدأه بعام 678هـ = 1279م، وانتهى بعام 770هـ = 1368م[clxxii]. ومحمد بن ناهض بن محمد الحلبي (ت841هـ = 1438م)، وله «سيرة المؤيد شيخ»[clxxiii]. ومحمد بن أحمد الرضي الغزي الدمشقي (ت864هـ = 1460م)، وله «سيرة الملك الناصر جقمق»[clxxiv].

محمد بن أبي بكر بن قاضي شهبة الدمشقي (ت874هـ = 1469م)، وكتابه «الدر الثمين في سيرة نور الدين محمود بن زنكي»، وله أيضاً «تاريخ الملك الأشرف قايتباي»[clxxv]. وأحمد بن إبراهيم الحنبلي (ت876هـ = 1471م)، وكتابه «شفاء القلوب في مناقب بني أيوب»[clxxvi].

أحمد بن إبراهيم المعروف بسبط ابن العجمي (ت884هـ = 1479م)، وله «قرة العين في فضائل الشيخين والصهرين والسبطين»، والشيخان هما أبو بكر وعمر، والصهران عثمان وعلي، والسبطان الحسن والحسين ﷺ[clxxvii]. ومحمد بن داود ابن محمد البازلي الكردي الحموي (ت925هـ =1519م)، وكتبه: «السيرة الشيخية لابن حجة الحموي»، و«كتاب مختصر سير الملوك الأوائل والملوك ووسيلة العبد والمملوك»[clxxviii].

5ـ عبد الرحمن بن خلدون[clxxix]:

لا يمكن أن ننهي بحثنا في علم التاريخ دون أن نتحدث عن عملاق هذا العلم عبر العصور: ابن خلدون، وهو الذي وُلد وعاش وترعرع في عصر المماليك، فابحثوا في فكر هذا العلّامة، تفهموا كيف يسير التاريخ، وتفقهوا قوانين تسيير التاريخ؛ هذه الجمل الثلاث هي نتيجة قراءتي المستمرة لفكر هذا العبقري، الذي فهمه الآخرون عملياً، وفهمناه نحن نظرياً.

فابن خلدون هو الفيلسوف الذي جمع الفلسفة التاريخية والاجتماعية في كثير من وجوهها دون أن ينازعه من تقدمه أو تأخر عنه في الشرق وفي الغرب معاً. ولا يمكن أن تُجمع عبقرية ابن خلدون في كتاب، فكما يقول الدكتور عمر فروخ؛ إن العالم الاجتماعي ساطع الحصري كتب في هذا الموضوع جزأين في نحو خمسمئة وخمسين صفحة و لم ينته من كل شيء أراد ذكره، مع أنه ذكر الذي تناوله بغاية من الإيجاز.

أ ـ التعريف بابن خلدون:

هو ولي الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن خالد بن الخطاب.كنيته أبو زيد و لقبه ولي الدين، وشهرته ابن خلدون، واشتهر بابن خلدون نسبة إلى أول من دخل الأندلس من أجداده، وهو خالد بن عثمان الذي اشتهر فيما بعد باسم خلدون وفقاً للطريقة التي جرى عليها حينئذ أهل الأندلس، إذ كانوا يضيفون إلى الأعلام واواً ونوناً للدلالة على تعظيمهم لأصحابها.

وُلد ابن خلدون في تونس سنة 732هـ = 1332م، ومع نشأته تتلمذ على يد عدد كبير من مشاهير العلماء، وكان في نيته التفرغ للعلم، ولكن وفاة والده ومعظم من كان يأخذ عليهم العلم في الطاعون الجارف منتصف القرن الثامن الهجري = الرابع عشر الميلادي، ثم هجرة معظم العلماء الذين أفلتوا من هذا الوباء من تونس إلى المغرب الأقصى، كل ذلك غيّر مجرى حياته الذي

رسمه لنفسه، فتوجه نحو تولي الوظائف العامة، وإنما كان يتحين الفرص ليعاود القراءة والاطلاع وتلقي العلم وتدريسه، فجمع في فترة جيدة من حياته بين أرقى مناصب الدولة وأرقى مناصب العلم، ومنذ عام 776هـ = 1374م تفرغ ابن خلدون للدراسة والتأليف إلى أن توفي بمصر سنة 808 هـ = 1406م [clxxx].

ب ــ محتويات المقدمة:

تطلق الآن مقدمة ابن خلدون على المجلد الأول من سبعة مجلدات هي التي يتألف منها كتاب «العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر»، ويشتمل هذا المجلد على ما يلي:

ــ خطبة الكتاب أو ديباجته أو افتتاحيته، وتقع في نحو سبع صفحات بحسب الطبعة، وقد عرض فيها ابن خلدون بعد حمد الله والصلاة والسلام على رسول الله، لبحوث المؤرخين من قبله، وذكر طوائفهم، ووجوه النقص في بحوثهم، وأشار إلى الأسباب التي دعته إلى تأليف الكتاب كله «كتاب العبر»، وبيّن طريقته وأقسامه، وختم هذه الافتتاحية بإهداء نسخة من الكتاب إلى سلطان تونس (في النسخة التونسية) وسلطان فارس (في النسخة الفارسية).

ــ «المقدمة في فضل التاريخ وتحقيق مذاهبه والإلماع لما يعرض للمؤرخين من المغالط والأوهام وذكر شيء من أسبابها»، وتقع هذه المقدمة في نحو ثلاثين صفحة، وعنوانها نفسه موضح لما تشتمل عليه.

ــ «الكتاب الأول في طبيعة العمران في الخليقة وما يعرض فيها من البدو والحضر والتغلب والكسب والمعاش والصنائع والعلوم ونحوها، وما لذلك من العلل والأسباب»، ويقع في نحو ستمئة وخمسين صفحة، وهذا هو القسم الرئيسي مما نسميه الآن مقدمة ابن خلدون. ويشتمل على ما يأتي:

– تمهيد يقع في نحو سبع صفحات، تكلم فيه كذلك عن التاريخ وموضوعه وأسباب الخطأ في رواية حوادثه، والأسباب التي دعته إلى البحث الذي يتضمنه هذا الكتاب الأول من مؤلفه، وبيّن البحوث الستة الرئيسية التي يشتمل عليها هذا الكتاب وموضوع كل بحث.

– ستة بحوث رئيسية وهي؛ الفصل الأول: «في العمران البشري على الجملة»، ويشتمل على ستة فصول فرعية (سماها ابن خلدون مقدمات)، ويقع في نحو تسعين صفحة. الفصل الثاني: «في

العمران البدوي والأمم الوحشية والقبائل»، ويشتمل على تسعة وعشرين فصلاً فرعياً، ويقع في نحو أربعين صفحة. الفصل الثالث: «في الدول العامة والملك والخلافة والمراتب السلطانية»، ويشتمل على أربعة وثلاثين فصلاً فرعياً، ويقع في نحو مئتي صفحة. الفصل الرابع: «في البلدان والأمصار وسائر العمران»، ويشتمل على اثنين وعشرين فصلاً فرعياً، ويقع في نحو أربعين صفحة. الفصل الخامس: «في المعاش ووجوهه من الكسب والصنائع وما يعرض في ذلك كله من الأحوال»، ويشتمل على ثلاثة وثلاثين فصلاً فرعياً، ويقع في نحو خمسين صفحة. الفصل السادس: «في العلوم وأصنافها والتعليم وطرقه وسائر وجوهه وما يعرض في ذلك كله من الأحوال»، ويشتمل على واحد وستين فصلاً فرعياً، ويقع في نحو مئتين وعشرين صفحة.

ج ــ ابن خلدون وفلسفة التاريخ:

إن مقدمة ابن خلدون من نوع المؤلفات التي عرفت في أوربا باسم «فلسفة التاريخ» في القرن الثاني عشر الهجري = الثامن عشر الميلادي، وباسم «علم التاريخ» أو «المدخل إلى التاريخ» في القرن الثالث عشر الهجري = التاسع عشر الميلادي، وفي الواقع إنها تتضمن في الوقت نفسه آراء ومباحث ونظريات اجتماعية هامة، فيجب أن نعدها من هذه الوجهة من نوع المؤلفات المتعلقة بـــ «الفلسفة الاجتماعية» وبـــ «علم الاجتماع» أيضاً.

غير أنه يجب ألا يغرب عن البال بأنها تتألف في حقيقة الأمر من «المقدمة والكتاب الأول» من سفر تاريخي كبير، وترمي قبل كل شيء إلى «تمييز الحق من الباطل في الأخبار» عند تدوين التاريخ، وتسعى إلى إيجاد «معيار صحيح يتحرى به المؤرخون طريق الصدق والخطأ فيما ينقلونه من الأخبار والوقائع» كما صرح بذلك ابن خلدون نفسه، حينما عقب على العبارة الآنفة الذكر بقوله «هذا هو غرض هذا الكتاب الأول من تأليفنا». ولهذا السبب يجب أن ينظر إلى مقدمة ابن خلدون ــ قبل كل شيء ــ كمؤلَّف في فلسفة التاريخ، فيجب أن نقارنها بأمثالها من المؤلفات التي حامت حول فلسفة التاريخ، قبل أن نقدم على مقارنتها بالكتب الباحثة عن الفلسفة الاجتماعية، أو علم الاجتماع، فلقد جمع ساطع الحصري ــ بعد جهد كبير واضح ــ على التقريب أهم المؤلفات التي تتعلق بفلسفة التاريخ مباشرة، فوجدها قد كُتبت بعد ظهور مقدمة ابن خلدون، ومنها: ــ الأمير (سنة 1520م = 927هـــ) لميكافيلي الإيطالي، ــ الحكومة المدنية (سنة 1690م = 1102هـــ) لجان لوك الانكليزي، ــ العلم الجديد (سنة 1725م = 1138هـــ) لجان باتيستا فيكو الإيطالي، ــ روح القوانين (سنة 1748م = 1162هـــ) لمونتسكيو الفرنسي، ــ طبائع الأمم وفلسفة التاريخ (سنة 1756م = 1170هـــ) لفولتير الفرنسي.

والآن أقول: إن تعيين منزلة مقدمة ابن خلدون في «تاريخ فلسفة التاريخ» يتطلب مقارنتها بالكتب والمؤلفات التي ذكرناها آنفاً، وإن دراسة لأحد كبار فلاسفة أوربا تلقي ضوءاً ساطعاً يعكس الحقيقة الواضحة بين مقدمة ابن خلدون والكتب المتقدمة الذكر، فقد ظهر كتاب شامل في فلسفة التاريخ لـــ (روبرت فلينت) الذي كان أستاذاً في جامعة أدنبرة بعنوان «فلسفة التاريخ في فرنسا وألمانيا»، ويظهر من مطالعة هذا الكتاب أنه اطلع على مقدمة ابن خلدون، بل إنه أشار إلى ذلك بإبداء إعجابه الكبير بهذا الفيلسوف، يقول مثلاً: «إذا نظرنا إلى ابن خلدون كمؤرخ فقط، وجدنا من يتفوق عليه حتى من بين الكتاب العرب أنفسهم، أما كواضع نظريات في التاريخ فإنه منقطع النظير في كل زمان ومكان، حتى ظهور فيكو بعده بأكثر من ثلاثمئة عام، ليس أفلاطون ولا أرسطو ولا القديس أوغسطين بأنداد له، أما البقية فلا يستحقون حتى الذكر بجانبه».

وقال: «من وجهة علم التاريخ أو فلسفة التاريخ، يتحلى الأدب العربي باسم ألمع الأسماء، فلا العالم الكلاسيكي في القرون القديمة، ولا العالم المسيحي في القرون الوسطى، يستطيع أن يقدم اسماً يضاهي في لمعانه ذلك الاسم ـــ ويقصد ابن خلدون ـــ». وقوله: «إنه يستحق الإعجاب بما أظهره من روح الابتكار والفراسة والعمق والإحاطة». وقوله الحاسم: «غير أن كل من يقرأ مقدمته بإخلاص ونزاهة لا يستطيع إلا أن يعترف بأن حق ابن خلدون في ادعاء هذا الشرف ـــ شرف التسمية باسم مؤسس علم التاريخ و فلسفة التاريخ ـــ أقوى وأثبت من حق كل كاتب آخر سبق فيكو».

ويظهر في باقي صفحات الكتاب أن روبرت فلينت يعد ابن خلدون متفوقاً أكيداً على جميع من كتب في فلسفة التاريخ، ليس من قبله فحسب، بل خلال القرون الثلاثة التي تلت وفاته أيضاً. إن صدور مثل هذه الكلمات التقديرية من المؤلف المشار إليه بالرغم من نزعته الدينية الشديدة المعروفة عنه في أوربا، يدل دلالة واضحة على شدة إعجابه بمقدمة ابن خلدون عند اطلاعه عليها، بعد انكبابه على درس جميع المؤلفات التي تحوم حول فلسفة التاريخ منذ بدء التفكير في العالم القديم حتى عصره.

لقد كان ابن خلدون بحق أول مفكر استطاع أن يكتشف ميدان التاريخ الحقيقي وطبيعته، وأن ينظر إلى التاريخ كعلم خاص يبحث في الحقائق التي تقع في دائرته، لقد كان شغوفاً بالتاريخ مع معاناته للسياسة فجاءت تجربته غنية. وإن شهادة روبرت فلينت في هذا الصدد، تغنينا عن مقارنة مقدمة ابن خلدون بالمؤلفات التي كتبت ونشرت في هذا الفن. ومع ذلك، فإنني لا أجد حرجاً بتوجيه الضوء باتجاه بعض المقارنات الأخرى، فلو قارنا مقدمة ابن خلدون مثلاً مع كتاب

(جواني باتيستا فيكو: ت1744م = 1157هـ) «العلم الجديد» فسيتبين لنا أن ابن خلدون قد أدرك قضية تعضل الحوادث الاجتماعية وتعقد الوقائع التاريخية حق الإدراك، فحاول أن يلم بجميع العوامل المؤثرة فيها، وبحث عنها بمقياس واسع جداً، شمل بناء المجتمع وطراز المعيشة أيضاً.

في حين إن أبحاث فيكو لم تخرج كثيراً عن نطاق الأدوار الثلاثة المروية منذ القرون الأولى، وأشكال الحكومات الثلاث المقررة في كتب السياسة منذ عهد اليونان، ولم يلتفت إلى بناء المجتمع، ولا إلى وسائط المعاش. ويتبين من تفاصيل أبحاث الطرفين أن ابن خلدون يتفوق على فيكو تفوقاً كبيراً من حيث شمول النظر، ونزعة العمق، وطريقة البحث والاستقراء، ويقترب من طرائق الأبحاث العلمية الحديثة بوجه عام، وطرائق الأبحاث التاريخية والاجتماعية بوجه خاص، اقتراباً واضحاً.

ومما يجدر بالملاحظة في هذا الصدد أننا قمنا بهذه المقارنات من غير أن ننبه على تواريخ كتابة الكتابين، أما إذا أخذنا فرق الزمن أيضاً بنظر الاعتبار فإننا نضطر إلى التسليم بأن رجحان كفة ابن خلدون في ميزان المفاضلة يصبح أكثر بروزاً وأشد بداهة. إذ من المعلوم أن مقدمة ابن خلدون كتبت سنة 779هـ = 1377م، في حين نُشرت (العلم الجديد) سنة 1725م = 1138هـ، وذلك يعني أن المقدمة أقدم من العلم الجديد بـ 348 سنة، ومما يجب ألا يغرب عن البال أن هذه القرون الثلاثة والنصف التي مرت بين كتابة الكتابين كانت من أخصب القرون في تقدم الفكر البشري، وأغناها في الانقلابات الفكرية والعلمية الأساسية، ذلك لأنه في هذه المدة حدثت حركة الانبعاث في أوربا، وتم اكتشاف أمريكا واختراع الطباعة، كما تم الطواف حول العالم، واختراع التلسكوب ...، فتوسعت بذلك آفاق المعارف الإنسانية توسعاً هائلاً، وفي خلال هذه المدة نشأ «ديكارت، وبيكن، وكبلر، ونيوتن»، فانقلبت طرائق التفكير والبحث انقلاباً كلياً، وتعبدت طرق الأبحاث العلمية.

فمن أعظم الأمور المشرفة لابن خلدون أنه سار سيراً علمياً في تفكيره قبل حدوث الانقلابات الفكرية التي أشرنا إليها، في حين أن فيكو ظل بعيداً عن مسالك التفكير العلمي مع أنه عاش وكتب بعد الانقلابات العظيمة التي ذكرناها آنفاً. وإن كان روبرت فلينت قد قال: «إن حق ابن خلدون في ادعاء شرف التسمية باسم مؤسس علم التاريخ أو فلسفة التاريخ، أثبت وأقوى من حق كل كاتب سبق فيكو»، فأقول: إن حق ابن خلدون في هذا المضمار أقوى وأثبت من حق فيكو نفسه أيضاً، وذلك ليس لأنه كان أقدم منه كثيراً فحسب بل لأنه كان أقرب إلى الروح العلمية الحديثة، على الرغم من هذه الأقدمية أيضاً.

ونأتي إلى ابن خلدون ومونتسكيو، فمونتسكيو من أشهر رجال الفكر والقلم الذين نبغوا في فرنسا في القرن الثامن عشر الميلادي = الثاني عشر الهجري، ولد في قصر يقع بالقرب من مدينة «بوردو» سنة 1689م = 1101هـ، ومات في باريس سنة 1755م = 1169هـ. ومن الضروري الإشارة إلى حكم العالم الحاضر على آراء مونتسكيو، فلقد حدد مونتسكيو مفهوم «الإقليم» بحدود ضيقة، لأنه حصره في شدة الحرارة والبرودة تقريباً، كما أنه بالغ مبالغة كبيرة جداً في تأثير ذلك في أحوال الأمم، وقد فاته أن الإنسان يقاوم تأثير الحرارة والبرودة، بـ «تكيف فسيولوجي طبيعي» من جهة «وتكيف اجتماعي اصطناعي» من جهة أخرى، فإن النوع الأول من التكيف يتم بردود الأفعال الحياتية بتقلص وانبساط الأوعية الدموية المحيطة، وبتزايد أو تناقص الإفرازات العرقية تبعاً لحالة الحرارة الخارجية، أما النوع الثاني من التكيف، فيحدث بتنويع وتنظيم الأغذية والملابس والمساكن حسب مقتضيات الحرارة. فقد أخطأ مونتسكيو خطأً عظيماً عندما سها عن ملاحظة الحقائق الراهنة، وتوسع كل هذا التوسع في تقدير مبلغ الحرارة في طبائع الأفراد والجماعات، وأوصل المغالاة في هذا المضمار إلى حد الادعاء بأن النظم الاجتماعية والسياسية والنزعات الدينية والمذهبية وكثيراً من الأمور الأخلاقية أيضاً تتبع الإقليم بوجه عام، ودرجة الحرارة والبرودة بوجه خاص.

إن جميع الأبحاث التي قام بها علماء التاريخ والاجتماع منذ عهد مونتسكيو إلى الآن اتجهت اتجاهاً يخالف المزاعم المذكورة بوجه عام، لأنها دلت دلالة قطعية على أن تفشي الجرائم، وإدمان المسكرات، وطغيان الشهوات ... من الأحوال الاجتماعية المعضلة التي تتبع عوامل كثيرة فتختلف لذلك اختلافاً كبيراً في الإقليم الواحد بين سكان المدن والأرياف، وفي المدينة الواحدة بين الطبقات الغنية والفقيرة، وفي الطبقة الواحدة بين معتنقي المذاهب والديانات، كما أنها تختلف في كل ذلك بين عهد وعهد، وبين قرن وقرن، فتعليل مثل هذه الأمور الاجتماعية المعضلة بتأثير الإقليم والحرارة مما لا يدل على فهم صحيح للحقائق الاجتماعية.

أما تأسس نظم الاجتماع والحكم، وانتشار الديانات والمذاهب، ونشوء نزعات السلم والحرب، فهي من الحادثات التي تتبع سلسلة طويلة ومتشابكة من الوقائع التاريخية، والعوامل الاقتصادية، والتطورات الفكرية والاجتماعية، وإن تعليل وتفسير مثل هذه الحوادث التاريخية والاجتماعية المعضلة، بالعوامل الطبيعية البسيطة مثل درجة الحرارة، والعرض الجغرافي، وخصوبة الأرض، مما لا يتفق مع حقائق العلم الحديث واتجاهاته أبداً.

وإذا أمعنا النظر ورجعنا إلى مقدمة ابن خلدون على ضوء ما ذكرناه آنفاً، وجدنا أنها كانت أكثر فهماً للحقائق الاجتماعية، وأشد تمشياً مع مناحي الأبحاث العلمية، وإن ابن خلدون أيضاً أقرّ بتأثير الإقليم والطبيعة في أخلاق الإنسان وطبائعه، ولكنه لم يغال في هذا المضمار كما غالى مونتسكيو، فلم يقع في الأخطاء التي وقع فيها هذا المفكر المشهور. وإن مطالعة تلك الدراسة ـــ ومقارنة الآراء المذكورة فيها بالنظريات المسرودة آنفاً ـــ يظهر بوضوح أعظم: أن ابن خلدون كان أقرب إلى فهم «طبيعة الحياة الاجتماعية» وإلى إدراك «روح التاريخ وفلسفته» من مونتسكيو بدرجات، على الرغم من أنه قد عاش وفكر وكتب قبله بمدة طويلة تقرب من أربعة قرون.

وبعد هذه اللمحة الأكثر من سريعة عن العلّامة ابن خلدون، أقول: متى ندرك أهمية تحليل فكره، ومتى نصل إلى مستوى دراسات الغرب عنه، فكل يوم يُكتشف شيء جديد من علمه الكامن في مقدمته، وآخرها أنه تكلم عن الخصخصة الاقتصادية قبل أي أحد.

ومن الغرابة التي لا يمكن أن تبرر بأي تبرير، أن أقسام التاريخ في الجامعات العربية لا تُخصص أي مساحة وقتية لدراسة ابن خلدون، ولا حتى ضمن مقرر من المقررات، بينما يحصل طلاب العلم في جامعات أوربا على درجة الدكتوراه في فكر ابن خلدون، ولا أجد تعليقاً على هذه المفارقة المؤلمة إلا أن أترك للقارئ أن يعلق هو!!!.